القِسمُ الأول
في الدِّرَاسَة

ويشتمل على الموضوعات التالية:

١ ـ الكلمة الطيبة.

٢ ـ الجهاد بالكلمة.

٣ ـ طريق الأدب الإِسلامي.

٤ ـ الأديب المسلم والالتزام.

٥ ـ في دراسة التاريخ الأدبي.

٦ ـ مسار الأدب الإِسلامي ومحاولات التزييف.

٧ ـ ملاحظات على طريق الأدب الإِسلامي.

٨ ـ الصورة الحقيقية للأدب الإِسلامي.

الكَلِمة الطيّبَة

منذ الأزل يقف الإِنسان بين كلمتين، وينتابه صراع رهيب على مدى العمر الطويل للحياة الإِنسانية: صراع اتخذ أشكالاً عدة، وبرز إلى الوجود بصور شتى، ولكنه بقي قائماً مستديماً.

لعل أبرز صور هذا الصراع ما كان بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، حيث يقف الإِنسان بينهما ليحدد مصيره، وبإحداهما يتجه إلى النعيم، وبالثانية يتجه إلى الجحيم، لأن للكلمة مكانة القيادة في الحياة الإِنسانية، وبفعاليتها وأثرها يرتسم طريق الإِنسان في دروب الحياة المتشعبة.

والأدب بمعناه البسيط الأصيل كلمة طيبة، تنبع من ضمير الإِنسان من وعيه، من فكره، من أعمق مشاعره، صادقة أصيلة، معبرة موحية، ولكن لا بد للرجل أن يقطع طريقاً شاقاً صعباً، ويخوض غمار حياة واسعة فسيحة بكامل وعيه وحسه قبل أن يصل إلى دنيا الأدب ليعبر عما يحسه بنفسه أو يجول بخاطره. لأن من أحب متابعة السطور، وتفتحت عيناه بين أزاهير الحياة المبدعة الشاعرة، يحس بعبير منعش لهذا الكون، ويتذوق سحر الوجود، في نسمات الربيع الأخضر وصحوة السحر الناعس، في زقزقة العصفور الواله، وصمت السكون المتعبد، في معالم الأرض المترامية أو رحابة السماء الزرقاء. ويحس أيضاً بابتسامة الحياة ويشرق في نفسه الأمل مهما رأى من الصعاب والعقبات، أو قابل من النجاح والسهولة.

نعم، يحس في كل ذلك جمال الحياة، جمالاً يعمق إحساسه فيحلق بخياله في فضاء واسع رحيب، ويتنقل كالأطيار في جنات واسعات من الشوق والطرب والنعيم والظلال، ويتقطر قلبه الغض رقة وعذوبة لندى الفجر المتألق، أو قد يغفو على ومضة خيال وثّاب، وينتفض لوخز دمعة حارة أو آهة محزون بائس، ويسجل في كل هذا سطوراً من نور مضيء تهدي قلوباً خلفتها الحياة اللاهية بين مهملاتها، أو ضيعتها عواصف الزمن بين التائهين العاثرين.

يمضي هذا الإنسان بين صفحات كثيرة متنوعة، يقلبها بوعي، ويتابع سطورها بأناة وإدراك، ويستوعب أفكارها بدقة، ثم يفرغ ذلك في صفحاته، في كتب ومؤلفات، يتغلغل في عبابها، ويصارع تضاريسها، ويتسلق جبالها الشاهقة ثم يتعرج في وهادها السحيقة المظلمة حتى يكتشف مجاهيلها ويظفر بكنوزها وأسرارها.

كم يحرق من الشموع في الليالي المظلمات، فتذوب شموعه تضحية وصبراً ولا يذوب جلده أو شغفه، وتنطفىء مصابيحه التي تنير دروبه وتهديه سبله ولكنه لا يتوقف بريق أمله لحظة ولا يمل أو يتعب أو يخاف، ويبقى على طريقه الطويل مكتشفاً باحثاً مجاهداً.

يمضي بجد وصبر وتصميم ليرتشف أجمل آيات الكون الساحر، ويعب أقصى ما يستطيع من معاني الحياة الشاعرة، يمضي لأنه يرى وراء كل ذرة من الأرض مجهولاً يستحق الاكتشاف، وفي عباب كل نسمة سراً يمكننا قراءة حروفه المعجمة. وفي رحلته هذه بين الصفحات والسطور والكلمات يصل إلى العبارات الجميلة المطربة، والمعاني الرائعة الثابتة، والأثر الخالد الفسيح، فيكسبها الخيال الخلاق ـ فوق ذلك ـ أجنحة قوية لتحلِّق فوق الحياة، وتعلو على ضروراتها المادية القاهرة، فيرى حينذاك معالم هذه الحياة رؤية واضحة، ويتسمع إلى أصوات الحياة فيميِّز خبيثها من طيبها،

ويعجم صلبها من ضعيفها، ويشاهد قذارة القيود المادية فيتقزز من وضاعة بعض الناس وهم يتيهون وراء المجون والعبث، ويُخضعون حياتهم لهذه الشهوات الحيوانية الفانية أو المادية الزائفة، وحين يحلق فوق الحياة تلك يرى شيئاً جديداً، ويحس بحالة من النشوة والوعي لم يكن ليحسها من قبل، ويلتقط من علوه ذاك صوراً جميلة دقيقة واعية، وتتحرك في قلبه أشواق الإِنسانية، ومشاعر الفطرة الآدمية، فطرة المخلوق الإِنساني في استوائه وصفاء طبعه، فيقدم بعد هذا مشاهد وصوراً من تلك المشاهد التي طبعتها الحياة على صفحة قلبه المرهف، يقدمها هدية لكل قارىء مبصر وسامع، وتكون شعاعاً ينفذ عبر ظلمات الحياة ليهدي الحائرين في دروب الإِنسانية المتشعبة.

وهذه الصور التي يقدمها للناس، هي بعض ما طبع في قلب هذا الأديب بعد أن ملأه الشوق إلى الخلود، أو ما ارتسم في فكره بعد أن انطلق بقوة وحرارة وأصالة، وكسر حوله القيود والضرورات، وتحوَّل إلى وعي وحس وخيال. فأصبح يرى ويسمع ويحس، ما لا يراه أو يسمعه أو يحسه بقية الناس، يحلِّق ويكتشف حيث يقعدون ويجهلون، ويعرف من أسرار الحياة ويسمع ما ترتله أصباحها وأمسياتها وهمسات لياليها ونفحِات أسحارها ما لا يدري به الناس، إنه يحس الكون إبداعاً جميلاً ساحراً لرب حكيم لطيف، وقبل أن يصل إلى نشوة الحياة هذه، ويحلق ويكتشف، يمضي الليل ساهراً ويهيم عشقاً بالكتابة والعبارة والكلمة الحية والحرف المجنح، فيُبكيه كتاب ويُضحكه آخر، وتقذفه عبارة إلى بحر لجّي، وتحمله أخرى إلى شاطىء مسحور، وتقلُّه عاطفة إلى جحيم لاهب، وتمسكه فكرة لتقوده إلى نعيم سرمدي.

ويظل هكذا يعب من شرابه الطاهر اللذيذ بلا ارتواء، بل كلما ازداد منه شرباً ازداد له ظمأ وشوقاً، لأن شرابه الطيب هذا عُصِر من ثمار طيبة مقدسة،

ماؤها سلسبيل الحياة الطاهرة. ولأنه نبع الكلمة الطيبة الخالدة التي بدأت مع الخلق الأول هداية للإنسانية في دربها الطويل.

ولا يكاد ينتهي من رحلته في عالم الكتب إلى ظل يستريح فيه بعد تعب حتى يحس بنفسه تمور بالمشاعر، وبقلبه يعج بالإِحساسات، وبخياله يتراقص بالصور والمشاهد، وبفكره يقفز بين معالم الأرض، ثم تتحول هذه المشاعر والإِحساسات والصور والأفكار إلى سطور لتكون إلى جانب أخواتها ضوءاً جديداً من الأضواء التي تنير ظلمة الطريق، ولتأخذ مكانتها في صف الكلمة الطيبة التي تتميز بالأصالة والصدق والوعي والحياة.

وحينذاك، حين يتفيأ هذه الظلال الناعمة اللذيذة، ويقدم لمجتمعه هذا الزاد النظيف، حينذاك يمكننا أن نسميه أديباً، نعم بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة التي بدأت بالكلمة الواحدة، وظلت تجوب الأرض، تبصر وتعي، تحس وتشعر، تصور وتعبر بلا توقف أو فتور. ويستطيع هذا الأديب ـ حينئذ ـ بحسه ووعيه وأصالته، أن ينطلق من قيود الحياة الجامدة الصلبة، ومن قذارة الأرض الحرام، من عالم الأقزام والمشوهين، ومن دنيا الأوهام والأباطيل، ينطلق من هذا كله إلى نور الحقائق وسماء النجوم وأزاهر الربيع وخضرة الحياة. وينتقل حالماً أو واعياً، صاخباً أو هادئاً. من زهرة لأخرى ومن غصن لآخر، وقد تجرحه بعض الأشواق أو يتذوق مرارة الطعم، فيكتشف كل ما يصادفه في طريقه أو يصل إليه خياله، ويدخل في ليل رهيب مظلم، فيحشرنا بين الأجيال التي فنيت أجسادها، ويحضِّر لنا صور حياتها الآفلة، أو يحملنا بقوة ساحرة إلى منابع الفجر المتسلسل بين جلابيب الظلام، ويستطيع بفصاحة تعبيره وجمال صوره، ورصانة منطقه، وقوة حجته أن ينتزع منا ابتسامة الأمل المشرق والرضى المطمئن، أو يستدرّ منا حرارة الدمع الصادق ولواعج الحزن الدفين، وقد ينطلق بنا إلى بعيد ليرينا سوءات الحياة وصَغار الدنيا، وذلة الناس وضلال الجموع اللاهية، وربما انتزع منا

قلوبنا وعرضها أمامنا، فعرفنا منها الأسود القاتم والأبيض الصافي والأحمر المدمى، والشاحب البالي، وقد يحضرنا المآتم والجنائز الحزينة فتنتفض مشاعرنا خوفاً ورهبةً، أو ينقلنا إلى ليالٍ ساحرة سعيدة.

وهكذا يظل الأديب في حياتنا ضوءاً كاشفاً، ووعياً مبصراً، وقوة خلاَّقة، ونغماً ساحراً، وصوراً بهيجة رائعة. وقد يبدو أيضاً سلطاناً قوياً يقود الناس، ويهدي القلوب، ويعبِّر عن أرق مشاعر الإنسان المختلفة، ويقدم الزاد الخالص للنفوس، والقلوب والمشاعر، فيضلها أو يهديها، ويحرفها أو يهذبها. ولعل التعريف الذي وضعه الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ للأديب يصور حقيقة دوره ومكانته في الحياة إذ يقول عنه: «رائدٌ من رواد البشرية يسبق خطاها، ولكنه ينير لها الطريق، فلا تنقطع بينه وبينها الطريق، وهو رسول من رسل الحياة إلى الآخرين الذين لم يُمْنَحوا حقَّ الاتصال كما مُنِحَهُ ذلك الرسول، فهو يَطَّلع من خفايا الحياة على ما لا يطلع عليه الآخرون، ويُحِسُّها في صميمها مجردة عن الملابسات الوقتية والحدود الزمنية، يحسها كما انبثقت أول مرة من نبعها الأصيل. ووظيفته أن يفتحَ المنافذ بيننا وبين هذا النبع بقدر ما نطيق. وفي الأديب ـ على هذا النحو ـ قبس محدود من النبوة التي تتصل بالقوى الكبرى، وتَصِلُ بها القطيعَ الضال. وقيمة الأديب الكبرى إنما تقاس بمقدار اتصاله بالنبع من وراء الحواجز والسدود»[١].

ألا ترى معي بعد ذلك أن هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي أمضيناها في عالم الأديب، في دنياه ومع أحلامه، في جنّاته ودروبه، هي بعض ما يعانيه الأديب وبعض ما يلزم له أيضاً على هذا الأساس؟

وحين يأخذ الأديب هذا الدور في الحياة بعد تلك المعاناة الصعبة

(١) النقد الأدبي: أصوله ومناهجه للشهيد سيد قطب رحمه الله.

والوعي المبكر والحساسية الصادقة، حين يصبح رائداً من رواد البشرية الذين يسبقون خطاها إلى نبع الحياة، وحين يحمل رسالة الأدب الحق، رسالة الكلمة الطيبة كما رضيها الخالق الكريم، وكما انبثقت من نبعها الأول، حين يكون ذلك ويأخذ دور الريادة والأسبقية كرسول من رسل الحياة، وقبس من قبسات النبوة، حينـذاك يعرف أهمية دوره في الحياة! وعظم مسؤوليته أمام الله ثم أمام نفسه والناس! هذا من جهة، ومن جهة أخرى يستطيع أن يؤدي دوره كاملاً، ويرفع من قيمة الأدب، ويحقق له معنى المسؤولية والالتزام. فلا يدخل عالم الأدب إلا الأصيل الجاد الذي يبذل الجهد، ويتصف بالوعي ويملك الموهبة والأصالة والتميز الصحيح، ويتسلح بالصبر والدربة والاطلاع الواسع.

ولا عجب في هذا لأن رسالة الحياة ابتدأت بكلمة واحدة: الكلمة الصادقة الطيبة التي حملت معنى وفكرة، ثم شعّت عملاً وحركة، وألقت في النفس البشرية شعلة ملتهبة مقدسة فحملت معنى الخير والحق ودفعت بالإِنسان في دروب الحياة الإِنسانية الأصيلة ودرب الخالدين. وبهذا المعنى أيضاً يترفع الأدب عما ألصق به من صور مشوهة، وما علق به من أوساخ وأقذار وسخافات، وما حمّلوه ـ زوراً وبهتاناً ـ من تهويمات باسم الأدب، وما دفعوه إلى المطابع ليملأ الصفحات والكتب والمجلات والصحف، ثم يخرجونه إلى الناس عبثاً ومجوناً باسم الأدب ليحط من قيمة الإِنسان، ويصور فيه أبشع حالاته، ولا يبرز منه إلا الأدران العالقة الوسخة.

وبهذا ندرك مرة أخرى كم يتجنى الذين يلصقون بالأدب ما ليس منه، باسم الفنون الأدبية: القصة والمسرحية والشعر الحر، وباسم الخيال المنطلق وحرية التعبير وصدق الصورة، وباسم الانطلاق والتحرر. ليدفعوا للأجيال الصاعدة صوراً مشوهة، ويقيموا في عالم الأدب أقزاماً مقتولة الحس والشعور والكرامة، فتضج الحياة بالعبث، ويضل الركب الصاعد عن

الدرب، ويتيه الفكر في ظلمات الشهوة، وهذا ما تصنعه الكلمة الخبيثة حين تقدم السم القاتل للناس في صور متعددة وأشكال مختلفة ليكونوا بذلك قد ارتكبوا جريمة بشعة لإفساد الأخلاق وتهديم الكرامة، وجنوح المرأة، وقتل الروح، وتفكك المجتمع، وتخريب الضمائر، وهذه رسالة الكلمة الخبيثة التي استعملها أعداء الشعب وأعداء الخير، وامتطاها الاستعمار كوسيلة ناجحة باسم الأدب والفكر.

والكلمةُ التي تؤدي إلى هذه النتائج كلمةٌ مُشَوَّهةٌ لا تعبِّر عن حقيقة الحياة وصدق المشاعر، ونِتاجٌ مسمومٌ منحرف رخيص. وأصحاب الكلمة الخبيثة هم مستغلو الشعب وأعداؤه الذين باعوا أنفسهم للشيطان والاستعمار. أما الكلمة الطيبة فهي التي تصور الإنسان بإنسانيته الحقة، وتعبر عن مشاعره الأصيلة، ترتفع به لترى بحق وفي أوسع مجال، وتسمع أدق الأصوات والصور والمعاني، وحين تعبر عن مشاعرها تعبر بأصالة لتكشف عن وجه الحياة الصحيح بالكلمة الأصيلة والشعور الصادق. ولهذا استمر الصراع منذ الأزل وحتى اليوم بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، بين الكلمة التي ترتفع بالإنسان إلى سماوات الفن والجمال والخير والحق، والكلمة التي تحط من قيمته وتدنسه بأوساخ الأرض وقذارة الحياة.

ومهما عظمت جلبة الناعقين الزائفين باسم الأدب والفن، فإنهم إلى زوال، لأنهم عبث وزبد وضلال، ولأنه تعبير مشوه كاذب عن وجه الإنسان الحق. أما الكلمة الطيبة فهي خالدة باقية، لأنها تعبير صادق أصيل، وصورة ناطقة عن فطرة الحياة السوية، ومنهج الحياة الخالد.

الجِهَاد بالكَلِمَة

في خضم الصراع المرير الذي يشهده عصرنا، لا بد للمسلم من صحوة حقيقية، صحوة يدرك معها أنه بحاجة لاستغلال طاقاته كلها دفاعاً عن كيانه أولاً، وقياماً بأمانة الرسالة التي أوكله الله بها ثانياً، لأنه مسؤول أمام الله سبحانه: عن نفسه وعن دعوته، ولن يعفيه من المسؤولية عذر، إلا إيمان خالص، وعمل جاد، ونية صادقة، ورحمة من رب العالمين.

وأعداء الإِسلام في كيدهم للإِسلام ودعاته، يستغلون كل شيء: الكلمةَ، والصورةَ، والعِلْم، والمادةَ، والجنسَ، ويستخدمون ذلك كله بطريقة ذكية لخدمة أهدافهم البعيدة وتحقيق أغراضهم الخبيثة، وقهر الحق الذي يحاربونه.

ومع هذا فما زال المسلمون يواجهون ذلك بسذاجة وغفلة، ويقصِّرون في مجابهة الأعداء، لأنهم يستخدمون وسائل بدائية ـ أحياناً ـ لمواجهة التخطيط والبرامج، وهكذا يغدو المسلمون ألعوبة في يد الأعداء الماكرين. وهكذا يتغلغل الهوان، ويستشري الفساد، ويزداد الباطل زهواً وتمرداً، ويتعاجب المبطلون والمفسدون، ويمعنون في الغي والشر.

فإذا تجاوزنا كثيراً من الأسباب والوجوه التي يظهرها الصراع، فإننا لا نستطيع أن نغفل عنصراً أساسياً للصحوة الإِسلامية المرتقبة ـ بإذن الله ـ وهو ضرورة الوعي الشامل، المبني على الإِيمان الراسخ، والتصور الواضح، والسلوك المتميز.

وأعني بالوعي الشامل: إدراك المسلم لحقيقة الصراع بين الإِسلام وأعدائه، وأبعاد هذا الصراع، ووسائله وألوانه، وميادينه المختلفة، مع فهم التصور الإِسلامي الشامل المتكامل الذي يحدد رؤية الإِنسان بشكل متوازن إزاء هذا الصراع. مع عدم التخاذل أمام مظاهر الكيد والخداع الجاهلي. وليعرف كل واحد دوره، ويبدأ خطواته بطمأنينة وثقة، بعيداً عن العبث أو التخبط.

أما إذا أغفل المسلم هذا العنصر، فلا بد له أن ينسى جانباً أو جوانب مهمة من واجباته في حمل الأمانة، وقد ينخدع بمظهر أو ينسى شيئاً، أو يتضخم شطر على حساب آخر، فيعاني من آثار هذا الأمر آلاماً، ويصبح جزءاً من الوسائل التي يستخدمها الأعداء دون أن يدري، وتقع عليه المسؤولية عند رب العالمين.

* * *

أنتقل بعد هذه المقدمة، للتحدث عن جانب من جوانب الصراع، ووسيلة من وسائله التي تستخدم في ميادين شتى، وأعني به جانب الكلمة، الكلمة المؤثرة الهادفة التي تحمل المتعة والفكرة، وتؤثر في النفس والقلب والعقل، وتخاطب الصغير والكبير، وتؤثر في تربية أجيال إثر أجيال.

هذه الكلمة تتمثل في الأدب، والعلم: الأدب بكل ألوانه وفروعه، الذي يسهم في جانب مهم من جوانب المعركة التي تدور في ساحة النفس الإِنسانية بين الحق والباطل. وكذلك العلم بكل فروعه ووسائله.

ولا يجهل أحد دور الكلمة في الحياة، فهي وسيلة مهمة تؤثر في الفكر والشعور معاً، وتسهم في الجوانب المختلفة من جوانب البناء الثقافي للإِنسان: الجوانب الوجدانية، والسلوكية، والفنية والعلمية، والمادية والمعنوية، والواقعية والخيالية. وهي التي تعبر عما في ضمائر الناس، وتنقل ما تبدعه أفكارهم، وتترجم عن مكنونات الإِنسانية وتطلعاتها، وتصور

حقائق الحياة وأشواق الإِنسان. وهي الجسر الذي يعبر عليه الإِنسان إلى مجاهل الحياة وحقائقها وإلى قلوب الناس وعقولهم. ولا أدل على دور الكلمة وأهميتها في الحياة من حملها للعقيدة الربانية، ومخاطبة الله عز وجل للإِنسان بكلمة «اقرأ»، وإلى جانب الدلالات الكثيرة التي تتركها الآيات الأولى التي أعطت للكلمة أهميتها، فإنها تبقى آيات التنزيل الأولى علامة بارزة على شرف الكلمة الطيبة التي تحمل معاني الحق، وتنبثق من العقيدة، وتؤدي أمانة الحياة بشرف وإخلاص.

فهذه الآيات ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق...﴾ «تبرز حقيقة التعليم، تعليم الرب للإِنسان بالقلم، لأن القلم، كان وما يزال، أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإِنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن، ونعرفه في حياة البشرية، ولكن الله سبحانه كان يعلم أهمية القلم، فيشير إليه هذه الإِشارة، في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية، وفي أول سورة من سور القرآن الكريم، هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتباً بالقلم، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى، لو كان هو الذي يقول هذا القرآن. لولا أنه الوحي ولولا أنها الرسالة»[1].

وهكذا يبين لنا سبحانه وتعالى دور الكلمة التي تحمل مع الإِنسان مسؤولية الحياة، حتى تغدو في قيمتها وأهميتها، الإِنسان ذاته، وتحمل شخصيته وأبعاده لأنها تعبر عن عقيدته، وعن أصدق مكنوناته، فإذا صدرت عن معين طيب كانت كلمة طيبة، وإن صدرت عن معين خبيث كانت كلمة خبيثة.

* * *

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٣٠ سورة العلق.

والمَدَنِيّةُ الحديثة: بفلسفاتها المختلفة وألوانها المتعددة، استخدمت الكلمة، واستفادت من دورها، وسخرتها بخبث لأغراضها البعيدة والقريبة. إنها أخذت دور التبشير بأفكارها، والمغذية لها في عقول الناس وقلوبهم. وكان لها تأثير بالغ في نقل التصورات، وإنشاء المناهج، وإثارة الشبهات وحمل الأفكار بعد أن استخدمت ألواناً ناجحة من فنون القول والكتابة، فكان منها تلك الألوان الأدبية المعروفة: المقالة والقصة والمسرحية والشعر والبحث والمحاضرة، والتمثيلية والحوار وغير ذلك من الفنون المطبوعة والمذاعة والممثلة.

فلماذا لا يلتفت المسلم إلى الكلمة؟

ولماذا لا يتعلم قراءة الكلمة في الحياة، القراءة الواعية المستبصرة الهادية؟

لماذا لا يتعلم كيف ينقل هذه الكلمة الطيبة إلى الناس: إلى عقولهم، وقلوبهم وبيوتهم، إلى نسائهم ورجالهم، إلى أطفالهم وكبارهم؟

سؤال ما زال يتردد، ويحتاج إلى كثير من العمل للإجابة عليه، وليس خافياً أن الأدب الإسلامي يحمل شطراً كبيراً من هذه الإجابة. فلماذا لا تبدأ الخطوات الجادة في تشكيل التيار الإسلامي للأدب واضحاً أصيلاً متميزاً هادفاً؟

ولماذا تبقى الخطوات مبعثرة، والجهود متنافرة، والمحاولات محدودة؟

لماذا نخشى وعورة الطريق وآلام المخاض والولادة[1]؟

---

(١) كانت هذه التساؤلات قبل سنوات كثيرة من إنشاء رابطة الأدب الإسلامي التي أسهمت في تأسيسها، وقبل ذلك في الدعوة لها وللأدب الإسلامي.

إنه الجهاد في سبيل الله، عندما يتوافر الإيمان والعمل الجاد مع التصور الواضح، وحينها لا يخشى رواد الطريق ما يصيبهم في سبيل ذلك من صعاب وآلام، ما داموا لا يبتغون إلا مرضاة الله، ولا يرضون بغير الحق طريقاً وهدفاً.

أليس ذلك ـ في هذا العصر بالذات وفي غيره ـ لوناً من ألوان الجهاد الذي ينبغي أن نُعِدَّ له عدته، ونتسلح من أجله بما يناسبه؟

نعم إن الطريق واحدة: طريق الدعوة، طريق الجهاد الذي بدأه رسول الله ﷺ وتحمل في سبيل العقيدة ألم العذاب والسخرية والمطاردة... و... و... حتى نفَّذ أمر الله **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾**.

والمسلم يملك الأداة الطيّعة، وله من الإمكانات المتاحة ما يجعله أهلاً لهذه المسؤولية.

والمدى رحب فسيح حيث لا تحد الكلمة الطيبة حدود النفس أو الوطن أو الأمد القصير، بل تنطلق لتجد الكون كله مجالاً رحباً، والأزمان أمداً فسيحاً، والإنسانية ميداناً واسعاً.

ولكن لا بد من رسم الإطار الواضح لخطوات الأدب الإسلامي، ولا بد من تحديد المعالم الواضحة لمسيرة الأديب المسلم. لأننا نرى في الساحة ألواناً أخرى متسلحة بوسائل قوية، ولديها القدرة على التزييف والإغراء، فلا بد والحالة هذه من تعاون العاملين في حقل الأدب الإسلامي، وهم كثير ولكنهم يحتاجون إلى عزيمة مؤمنة، مع صدق العمل وجرأة الحق.

ومعذرة ـ إذا قلت هذا ـ فكم من دارس متخصص يخشى على نفسه من هجمة الباطل أو فوات الفرص التي تحين له، في حمل لافتة كتب عليها «شهادة تخصص» لينال بعدها الألقاب، وتخلع عليه المهابة، فلا يجرأ ـ من أجل هذا ـ على ارتياد هذا الطريق، ويخضع نفسه لمقاييس الجاهلية وإرادة

المزيفين، ويمضي شطراً من عمره الناضج وهو يسهم في بناء الأدب المزيف الذي صنعه أصحابه لحرب العربية والإِسلام، فترى مثل هؤلاء يختارون من الموضوعات ـ في دراساتهم ـ ما لا يفيد في آخرته، أو يخدم دعوته، أو يعبر عن فكرته، بل يمضي في خط الماكرين والحاقدين لينال اللقب ويفوز باللافتة (الشهادة) ويحتل المنصب، ويخدم أغراض المحاربين لله ولرسوله.

وكم من الناس خسروا أنفسهم، وخسرتهم دعوة الإِسلام، وخسرهم الأدب الإِسلامي بعد أن خضعوا لأهواء المبطلين، فدرسوا ما فرضته عليهم الجامعات، أو ما أوحاه لهم المهيمنون على الدراسات الأدبية وفروع الأدب في ديار العرب والمسلمين، حتى بات ما قبلوه في البداية لتحقيق مصلحتهم، شيئاً من ذواتهم، وجزءاً من تفكيرهم، يتعصبون له ويدافعون عنه ويحملون فكرته ويبشرون بها في مجالات الأدب والثقافة. ولا يخفى على أحد أن أكثر المهيمنين على ناصبية الدراسات الأدبية في الجامعات، والممتلكين لوسائل النشر، ممن تتلمذوا على يد الغرب، وحملوا فلسفته وتصوراته من ماركسية ورأسمالية. بل وكثير منهم يجهر بعدائه للإِسلام ولكل ما يمت إليه من صلة، فيحاربون القديم والتراث باسم محاربتهم للتقليد والجمود، ويصطنعون لهذا ألواناً وأساليب من الدعاوى والأفكار لخداع الناس، ومما يحزن أن هناك منهزمين يؤخذون بهذه الدعوات، وهناك مغفلين يجرون وراء الجديد دون أن يعودوا إلى جذور هذه الدعوات التي لبست أردية الأدب والتجديد والتي ترمي لبعث الصليبية، أو حمل الماركسية وغيرهما.

وهؤلاء الذين يهيمنون على الدراسات الأدبية أرادوا أن يخضعوا كل الدارسين لتصوراتهم ومناهجهم، وأوهموا الناس أنها مقاييس ثابتة وأصيلة، ومضوا باسم البحث العلمي، وطرق الدراسة، وغير ذلك من المسميات والأطر يوجهون الدراسات الأدبية لخدمة أغراضهم ومناهجهم وأفكارهم.

ووقفوا في وجه الذين أرادوا أن يتحرروا من هذه العبودية، وينهجوا نهجاً مستقلاً يعبر عن ذواتهم وشخصيتهم، ورموهم بالعقم والجمود، والقصور ومجانبة الموضوعية، وعدم الالتزام بمناهج البحث العلمي. وكم رفعوا من مبتذل ساقط، وكم نصبوا من صنم لا يستحق أن ينظر إليه بغير اللعنات، وليس كل هذا غريباً، فهؤلاء أصحاب رسالة يخدمون رسالتهم، وأصحاب عقيدة ينطلقون من عقيدتهم، ولكن العيب كل العيب في الإِسلاميين الذين خضعوا ورضوا بهذه العبودية ورضخوا لهذا المنهج، وساروا مع هؤلاء رغبة أو رهبة.

نعم كل الغرابة أن يخضع الدارس المسلم لهذه المقاييس، ويبني بحثه ودراسته على أساسها كمسلّمات، وينطلق باسم المعاصرة والتجديد والتحديث و... و... ليحمل هذه الدعوات، ويهدم بناء الأدب الإِسلامي.

فهل يخاف هؤلاء أن يُتهموا بالرجعية فلا يقولون شيئاً يخالف مقاييس السَّدنة من أصحاب الدعوات الجديدة؟

ومتى نتحرر من هذه التبعية، وننهض بعبء المسؤولية، لينشأ الأدب الأصيل على أساس متين من التصور الإِسلامي للحياة، وبمقاييس إسلامية؟

ومتى نبدأ في إعادة التقويم لكل ما كتب عن تراثنا وأدبنا، ولكل ما قيل عن أدبائنا؟

ومتى ننهض لدراسة الأدب الإِسلامي بدراسة نصوصه الكثيرة وحملته المخلصين ممن تزوّدوا بسعة المعرفة، وأصالة الموهبة، وصحة التصور، وعزيمة المجاهدين؟

لقد هزء صغير يتردد اسمه في مجالات الدراسات الحديثة من هذه الدعوة لإِنشاء أدب إسلامي، لأنه أحس بالخطر على ادعاءاته وزوره.

ونسي هذا المستعبد للمادية أن خضوعه للمقاييس الماركسية نابع من عقيدة يلزم نفسه بها مع أنه ينكر على غيره أن يلزموا أنفسهم بما يعتقدون، وتناسى أن فكرته تلك مبتوتة الجذور، سطحية التفكير، ومناقضة لحقائق الحياة وفطرة الإنسان، ومع هذا صار لها تيار يصدر عنها ويحمل أفكارها.

فإذا كان هذا حال العقائد المتناقضة، فمن البديهي والأولى أن يُنشىء الإسلام أدباً أصيلاً رائعاً.

ومن البديهي أن يكون للإسلام تيار يجرف هذه الدعوات أمامه، ويزيل هذه التناقضات.

فهل يعزم ـ بعد هذا ـ المخلصون، ويستفيق الواهمون والغافلون فيرتادون الطريق.

وهل يبدأ رواد الأدب جهاداً حقيقياً، بالكلمة الطيبة والفكرة الواعية والأسلوب المؤثر لإنشاء أدب إسلامي حديث؟

حبذا أن يبدأ ذلك، وأن يتنادى عدد من المخلصين لعقد ندوات أو مؤتمرات للأدباء المسلمين بعيداً عن الرسميات، والشكليات ليأتي البناء معبراً عن التصور الإسلامي، والأصالة الإسلامية دون تقييد من ظرف أو مجاراة لوضع، وحينها تبدأ خطوات الطريق.

فإلى إنشاء هذا التيار المتميز، فليعمل أصحاب المواهب والاختصاص والله مع الصابرين[1].

---

(١) نشرت في مجلة المجتمع عدد رقم ٣٤٣ تاريخ ١٢/١٣/١٣٩٧ هـ الموافق ٢/٣/١٩٧٧ م.

طريق الأدَب الإسْلَاميّ

شيء جميل أن نرى آثاراً أدبية جديدة تخرج إلى عالم النور.

وشيء جميل أن نحس باهتمام أكبر في تعميق التيار الأدبي الإِسلامي، وشيء جميل أن يبدأ الذين يملكون المواهب في صنع مستقبل أدبهم الإِسلامي المتميز، نعم، كل هذا أصبح واقعاً ملموساً، يُرى ويُسمعُ رغم الحواجز التي ما زالت تحول دون وصول ما يكتب إلى أنظار القراء وأسماعهم، ورغم المحاولات التي ما زالت تكيد وتسعى لتشويه الوجه الطهور لأدبنا الإِسلامي.

ولكن علينا أن ندرك حقائق هذا العصر، وصورة الصراع الدائر على بساط أرضنا المباركة.

■ وأبسط هذه الحقائق هي أنه ما من نتاج أدبي إلا وينتمي إلى فلسفة معينة، ويستقي من فكرة محددة، ويعمل لغاية مأمولة تتوافق مع غايات هذه الفلسفة، وتسير على الطريق التي ترسمها المبادىء. حتى العبث، والتفاهات، والسقوط، والهروب، والضياع والشذوذ الجنسي، كل ذلك أصبح عقائد وفلسفات لزمر كثيرةٍ من الناس الذين ضلوا الطريق.

وكذلك فإن أولئك الذين يُساقون وسط التيار فيرضخون، ويخدعون بالأردية الشفافة فيستسلمون، فإنهم يخضعون لهذه الفلسفات، وتنطبق عليهم هذه الحقيقة من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

■ ومن هذه الحقائق ـ أيضاً ـ أن أصحاب الفلسفات المادية ينظرون إلى الأخلاق والقيم بغير المنظار الذي يفهمه المسلم، أي بغير المنظار الطبيعي الذي فطرت عليه الحياة. إنها مرتبطة عندهم بالتطور والحاجة المادية، والمصلحة الآنية ولهذا فهم يُخضعون كثيراً من الوسائل والقيم إلى التبديل والتكيّف لتتلاءم مع المرحلة التي يريدون، ولتخدم مصلحتهم، ولو تناقض هذا مع مبادئهم وأهدافهم البعيدة، وكثيراً ما نراهم يهتمون بالأخلاق، ويتظاهرون بالتدين، ويدغدغون أحلام الناس لكسب رضاهم، وتمرير مخططاتهم، أو تجاوز مرحلة صعبة تمرُّ بهم.

وإذا طالعنا صحيفة من صحفهم، أو مجلة من مجلاتهم، رأينا حرصهم على تقديم طبق من أطباق الدين، وإظهار حبهم للخلق والفضيلة، وسط الأطباق الكثيرة المحرمة التي تمتلىء بها صحائفهم.

ولا يجدون حرجاً من الجمع بين أفكار الدين وسلوك الإِباحية، ويفسرون كثيراً من النصوص تفسيراً مادياً يؤدي إلى الإِلحاد، ويقدمون بعض النصوص من الأحاديث الشريفة في مكان آخر، وغايتهم التشويه والخداع، وذر الرماد في العيون.

هكذا يستخدمون كل وسيلة، ويستغلون كل فرصة، والمخدوعون من السذج هم الذين يصدقون دعاواهم، وتجوز عليهم مثل هذه الأساليب.

■ وأصحاب النظريات المادية يحرصون مع هذا على هدفهم البعيد في محاربة الدين وإفساد الأخلاق، والانسلاخ من أي معنى من معاني الإيمان، وإحلال مذهبهم المادي الذي يؤثر المنفعة، ويرفض كل أمر غيبي، ذلك نراهم يعملون على تشويه الصورة الرائعة التي رسخت في أعماق المسلمين عن دينهم، ويثيرون الشبهات حول تاريخ المسلمين وعقيدتهم.

وهم عندما يتناولون حدثاً من أحداث التاريخ الإِسلامي الرائعة، مما

لا يملكون إنكاره، يجرؤون على نفيه، يعمدون إلى أسلوب خبيث في كيدهم، إذ يُكبرون في هذا الحدث ـ إن كان معركة، مثلاً ـ ويشيدون بالأبطال، ولكنهم في زاوية أخرى يرجعون أسباب النصر، إلى أمور غير التي كانت، بل يقبلون كل سبب، ويشيرون إلى كل أمر إلا أمر الإِيمان والإِسلام، فهم يعللون النصر بالشجاعة، والعدد، والانضباط، والخلافات في صفوف الأعداء، والظروف الاجتماعية، أو السياسية المحيطة، وبمعنى أوضح فإنهم يربطون بطريقة خبيثة بين النتائج الباهرة، والأسباب المادية فقط، كما تعلموا من مذاهبهم المهلكة.

وبهذه الطريقة يحققون هدفين معاً، الأول: كسب ثقة البسطاء والمثقفين العصريين، ورواد الإِسلام الفكري.

والثاني: إدخال مفاهيم المذهب المادي، وأفكار هذه العقائد إلى المجتمع، وجعلها أساساً في التقويم والتفسير، حيث يلبسونها أثواب التحليل والعلم والموضوعية.

□ وهؤلاء الناس ـ وهم يملكـون قيادة التوجيه الفكري في كثير من بقاع العالم الإِسلامي ـ لا يتورعون عن كم الأفواه الصادقة، وإسكات الأصوات المؤمنة الواعية، لأنهم يدركون أن الخطر كل الخطر من العقول المؤمنة الواعية التي تكشف زيفهم وتقطع عليهم الطريق، وحينها يصبون جام غضبهم على هؤلاء، ويحرفون الكلم عن مواضعه ويعمدون إلى إثارة الشبهات حول هؤلاء، ويطلقون الدعاوى المضللة حولهم ليزيحوهم من الطريق.

وحينمـا يسكت الناس على هؤلاء الطغاة ـ طغاة الفكر والسلوك ـ وإذا رضخوا لهذه التحريفات، فإن المفسدين يزدادون عبثاً في الحياة، واستخفافاً بالعقول وطغياناً وضلالاً، ليعم البلاء على كل الناس، في ذهاب القيم، وضياع الفضيلة وانتشار الأفكار الباطلة.

ولكن المؤمنين الصادقين لا يسكتون ولا يرضخون، لأنهم حينما يدافعون عن الحق، ويفضحون أمر الباطل لا يخشون في ذلك إلا الله، ولا يأبهون لما يصيبهم في سبيل الله عز وجل.

* * *

الصوت المسلم الصادق صوت متميز شجاع.

والصوت المسلم الصادق صوت متميز واضح.

والصوت المسلم الصادق صوت صافٍ هادىء، وقوي هادر، ومطمئن واثق، لا يؤثر الضجيج الفارغ، ولا يخشى القوة الغاشمة، ولا ينخدع بالبهرج الزائف، هذه حقيقة ينبغي أن نعيها جميعاً، ويعيها الذين يخطُّون للإِسلام طريقاً متميزاً في الأدب والفكر والحياة.

وحملة الأدب الإِسلامي اليوم لا بد أن يتميزوا أيضاً، فالغاية السامية تحتاج إلى وسيلة نظيفة. ومجتمع الإِسلام لا يقبل الخلط المشين بين صور جاهلية وأخرى إسلامية، ﴿**لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين**﴾

وفي هذا الخلط جاهلية، وفيه خطر وتزييف، وليست صورة الضياع منذ تدهورت حضارة المسلمين إلى اليوم إلا مثالاً على هذا كله، فلماذا لا نأخذ العبرة، ونعرف أن مرضاة الله سبحانه وتعالى هي الغاية، وأن النصر للحق مهما طال الطريق وعظمت التضحيات. أقول هذا ونحن نرى هنا وهناك كيف يحاول أصحاب المذاهب الباطلة أن يتدسسوا إلى قلب المجتمع الإِسلامي، لا حباً في التطهر أو رغبة في الهدى، وإنما ابتغاء للإِفساد والتشويه ولو كان ذلك بعد حين.

* * *

الأديب المسلم عندما يحاول أن يمارس دوره في هذا المجتمع،

ويسهم في البناء لا بد أن يكون واضح الغاية والهدف، متبيناً للخطى والوسيلة، لا يقبل الخلط، ولا يبرر سلوك الباغين والمتآمرين على الإسلام، ولا يقبل أن يسهم في بناء الكيانات المنحرفة بكتاباته وأبحاثه، ولا يرضخ لتشويهات العصر، واختلاط الفلسفات الوضعية وسط الفكر الإسلامي.

إن الأديب المسلم مسؤول عن بناء مجتمع نظيف، مجتمع يقوم في أساسه وجميع مراحله على الإسلام. يأخذ المادة من الحياة ولكنه يبنيها بالطريقة السليمة كما علمه الإسلام. فإذا تشابه البناء في زاوية أو جانب مع أي بناء آخر، فلا يكون ذلك لتأثره بالفلسفات الوضعية، بل لأن هذه الفلسفات أصابت في هذه النقطة بقصد أو غير قصد.

ولا يستطيع الأديب المسلم تحقيق ذلك إذا سلك سلوك الجاهليين، وساهم معهم في صحفهم، وانخرط في صفوفهم، وانطلق يحمل أهدافهم أو بعض أهدافهم مهما كان السبب، وأياً كان المبرر.

وهل من مستلزمات الأدب الإسلامي أن يعترف بريادة المذاهب المعاصرة، ويخضع لمقاييس الجاهليات الحديثة، ويصاغ على أساليبهم؟

وهل من الطرق الصحيحة أن يحمل الأديب المسلم مع أعداء الإسلام أعباء ما يعملون، ويشيد معهم ما يريدون، ضمن الاتحادات والروابط والنشاطات المختلفة؟

إنهم ـ وهم الخبثاء في الهدف والوسيلة ـ يستخدمون كل شيء للوصول إلى غاياتهم، وهم لا يخطئون إذا استفادوا من المسلم، وسخَّروا الأديب لتحقيق ذلك، لأنهم يبنون أعمالهم على الخداع والاستغلال الخبيث وبعد أن يستهلكوا من يستخدمونه ينبذونه ويبحثون عن شيء آخر، والصحوة التي نريدها للأديب المسلم هي صحوة الإيمان الواعي، صحوة الثقة بالله، والاعتزاز بالإسلام، والأصالة التي لا يهمها العبث والطيش.

فعلى الأديب المسلم أن يكون واعياً على ذلك كله، وألا يكون معاوناً للخبثاء أو مطية لهم، بأي حال من الأحوال.

إن طريقه صعب ـ ولا شك ـ ولكنه طريق الدعوات، والرسالات، وطريق الصالحين الذي ينتهي بالجنان والرضوان.

فليكن إذن بناء الأدب الإسلامي على أسس أصيلة، أسس مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، مستمدة من تراثنا، متوافقة مع ثوابتنا، متلائمة مع لغتنا.

الأدب الإسلامي بتراثه الممتد عبر قرون كثيرة، والمنتشر على مساحات شاسعة من الأرض، وبتجاربه النابعة من مجتمعاته الإسلامية يستطيع أن يستعيد مكانته، ويبني منهجه الذي ينبثق من التصور الإسلامي، ويحمل سمات المسلمين، وأذواقهم وتجاربهم، بعيداً عن التقليد، والاتباع الأعمى لآداب الشعوب الأخرى.

إنها صحوة المسلم الذي يستعلي على هؤلاء، ويبني بجد وثقة. والله ولي المؤمنين.

الأديبُ المُسلِم وَالالتِزام

إنها مبشرات طيبة تلك التي نراها من سمات الصحوة الزاهرة في المجتمع الإِسلامي: وهي تبدو في شتى المجالات: الفكرية، والأدبية، والسلوكية، والسياسية والدعوية، عند الرجل والمرأة على السواء.

وهذه الصحوة لها مبرراتها القوية، ولا سيما في هذا العصر الذي وصلت فيه المدنيات المادية المعاصرة ـ شرقية وغربية ـ إلى أوج تطورها وابتكاراتها في الصناعة، كما أنها وصلت إلى درك مخيف من الانحطاط في عالم الروح والمعاني الإِنسانية[1]، لقد تعدَّت كل نطاقٍ في ما أعطت من

(١) كانت هذه الكتابة قبل سنوات طويلة مما نراه اليوم في بقاع العالم الإسلامي وانقضاض الغرب، وعلى رأسهم أمريكا، لتحطيم العالم الإسلامي وتفتيته والقضاء على الإسلام، إن إنسانيتهم، وحريتهم، وديمقراطيتهم لا تتجلى إلا في الغرب، أو عندما يتعلق الأمر بواحد منهم، أو بأي إنسان غير مسلم، بل حتى عندما يتعلق الأمر بكلابهم وقططهم وخنازيرهم. أما عندما يتعلق الأمر بالمسلم، فعندها يباح كل شيء، يباح دمه وعرضه وماله، وتصبح الحرية للمسلم إرهاباً، والديمقراطية فوضى، والإنسانية جريمة. ها هي مشاهد البوسنة والهرسك، وكشمير، ومحاربتهم لكل من يرفع كلمة لا إله إلا الله في الأرض. وها هم يدعمون كل قتال طاغية للمسلمين في العالم. ويلاحقون كل جماعة أو جمعية إسلامية تحت مسميات (الأصولية، والتطرف والإرهاب) لقد باتت أمريكا متألهة تريد أن تضع للناس قوانين وأخلاقاً وتعاليم تكفل لها ولشعبها الرفاه على حساب الشعوب، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ ها هي روسيا السوفيتية قد انهارت، وستتبعها أمريكا، وانحدارها بدأ، ولن يتوقف إن شاء الله.

أزياء الشذوذ، ونماذج الوحشية الآلية، حتى فقد الإِنسان المعاصر كثيراً من القيم، وأصبح في أدنى مرتبة يتخيلها البشر، وبات يصرخ مستغيثاً في عالم تصطخب فيه أصوات الآلات، بأصوات المعذبين، وتتسابق أرقام الإنتاج بسرعة مجنونة لترتسم على لوحات الآلات، حتى ضاع الإِنسان، واختفى صوته، وتغيرت سماته، واختنق وسط هذا الرعب الذي يجتاح البشرية باسم التقدم والاختراع.

وهكذا كانت الصحوة الإِسلامية لإِنقاذ الإِنسان من هذا المنحدر، وهي صحوة الإِنسان العائد إلى ربه، الذي يفتش عن نفسه، لينجو من القلق، ويتخلص من الضياع، ويترك التيه الذي وضعته فيه الفلسفات الأرضية الخائبة.

وفي عالم الأدب نرى هذه الصحوة أيضاً: أصوات إنسانية صادقة بدأت تصل بأنغامها الصافية إلى أسماع الناس، وتخرق حجاب الصخب.

وآثار أدبية مختلفة عن الفطرة السوية بدأت ترتسم في لوحات رائعة ليراها الناس.

ولم يكن الأمر سهلاً، لأن هذه الأصوات ما نفذت إلى الأسماع إلا من خلال الأسوار الحديدية، والجدر الصماء، وبعد أن تحدَّت رقباء السوء، وعيون الخبثاء الذين يترصَّدون كل نسمة طيبة، وكلمةٍ ندية ليصادروها أو يفسدوها.

مع كل هذه الحواجز، بدأنا نرى في الصحافة والإِذاعة، وفي الكتب والمجلات آثاراً أدبية طيبة، كانت تتجمع كالقطرات الندية حتى تحدد مجرى خاصاً بها، ثم تتحول إلى جداول وأنهاراً، عذبة متدفقة، صافية رقراقة، وكلما رفدت هذا النهر قطرة أو ساقية، كلما ازداد عمقاً، وازداد تحديداً لمجراه، وازداد إرواء للعطشى، وقوة على متابعة السير.

دواوين الشعر الإِسلامي الحديث، ودراسات عن الأدب الحديث، اجتهادات ومحاولات كثيرة لتحديد الإِطار الفني للأدب الإِسلامي، قصص تتوالى في الصدور ومسرحيات تتابع لتشق طريقها وسط هذا العالم المصطخب وأبحاث جادة هادفة ترسم للأدب الإِسلامي طريقه، وتحدد من خلال الواقع أطره وأصوله، وتكشف مزاياه وعناصره.

كلها علامات بارزة تبشر بمستقبل أدبي طيب إن شاء الله.

وما دام الأمر يختص بالمستقبل، ويتناول الأدب الإِسلامي، وما ينبغي أن يكون عليه، وما ينبغي لرواده أن يكونوا عليه، لذلك لا بد من تحديد واضح للمعالم، وإيضاح كامل للأسس والركائز التي يقوم عليها أدبنا الطيب. ولا يغيب عن بالنا أن هذا العصر يتسم بالفلسفات المتناقضة التي تتصارع لكسب الإِنسان واستعباده، وكلها تطرح مناهج ومفاهيم تغطي شتى المجالات الدنيوية، وكل فلسفة من هذه الفلسفات تسعى لإِقناع الناس بأهدافها وتستخدم شتى الوسائل لهذا الغرض، وتحاول أن تبني مجتمعها الخاص الذي يحوِّل هذه المناهج إلى واقع يعيش فيه الناس، ويدفعهم إلى الاقتناع به واتباعه. والمسلمون أحرى الناس بذلك، ما داموا يصدرون عن منهج رباني أصيل، فيه الشمول والتكامل، والثبات، وإمكانية الإِبداع بالقدر الذي يتلاءم مع متطلبات الحياة الإِنسانية وتطورها المادي المستمر، فضلاً عن أنه يعتمد على الحقائق الأصيلة، والفطرة السليمة، ويتلاءم مع كل البشر ويسعى لخير الإِنسانية، ويحقق كل ما يحتاجه الإِنسان من توازن وطمأنينة وسعادة وكرامة وكفاية.

لهذا لا بد من تحديد هذا الطريق الذي يسهم فيه الأدباء بنصيبهم، وإيضاح المعالم لكي يتبين السائرون دربهم فلا يضلُّون عن طريق التقليد، ولا ينحرفون أو يُقَصِّرون عن طريق الجهل أو الخوف، ولا يتوقَّفون لأي طارىء.

ومن أهم ما ينبغي للأديب المسلم، أن يعرف دوره وحدوده في هذا الطريق الطويل، ويتبين بوضوح أنه ملتزم في هذا الطريق، التزام الذين بايعوا رسول الله ﷺ من سلفنا الصالح - كحسان وكعب وعبد الله بن رواحة وغيرهم من الشعراء والخطباء من صحابة رسول الله ﷺ.

والالتزام - بحد ذاته - ليس جديداً، إنما هو قديم قدم الإنسان على هذه الأرض، وقدم الرسالات السماوية التي أنزلت لترسم للإنسان طريقه في الحياة.

وهو لا ينفصل عن الإنسان، ولا يبتعد عن فكره، وسلوكه، ومجتمعه. ومن خلال هذا الإطار نناقش قضية الالتزام في الأدب الإسلامي.

وعندما نعود إلى صفة الأديب المسلم نرى أن هويته لا تتحدد إلا من خلال هذه الصفة «المسلم»، وأنه لا يدخل في إطار الأدب الإسلامي إلا من هذا المدخل فقط، لأن صفة الأديب فقط، يشترك فيها مع غيره من الأدباء مهما كانت وجهتهم وصفاتهم، وهي لا تشير إلَّا لموهبته وقدرته الأدبية فحسب، التي تميزه عن بقية الناس في انفعالاته وأحاسيسه وأفكاره، ولذا نرى أن الأدباء يتفاوتون ويتمايزون على أساس معتقداتهم، كلهم يمتلك وسيلة الكتابة والتعبير، ولكن كلًّا منهم يعبر عما يريد من أفكار، وبما يؤمن من أشياء ومثل، وبالأسلوب الذي يراه مناسباً لهذا الاعتقاد. ولا غرابة أن يستقبح قارىء فكرة ما أو أسلوباً ما، بينما يقبل آخر هذه الفكرة ويعجب بذلك الأسلوب.

وهنا تبرز أهمية الأدب ودوره، ومسؤولية الأديب المسلم، لأنه سيحمل الفكرة، ويبشر بالعقيدة، ويزين للناس ما يحب الكاتب والأديب، أو ينبه على الخطر، وينفر من الشر، ويحذر الناس من السوء.

ولكن الأديب المسلم لا يكتسب هذه الصفة إلا إذا كان مؤمناً حقاً، ومسلماً صادقاً يلتزم شرع الله فكراً وسلوكاً واعتقاداً، ولا فرق في اكتساب

صفة الإِيمان هذه بين المسلم والأديب وغير الأديب، فإذا كانت الصفة لازمة للمسلم العادي الذي لا يتعدى تأثيره إلى غيره، فهي أكثر لزوماً وأشد ضرورة ووضوحاً للأديب المسلم، لأنه سيكون في موضع التوجيه والريادة والتأثير، وسيأخذ لوناً من ألوان الدعوة، وصورة من صور القدوة.

بل كيف يُقبلُ إطلاق هذه الصفة على رجل لا يعرف للإِسلام قدرَهُ، ولا يقوم بما أوجب الله سبحانه عليه، مع أن الله عز وجل لا يقبل من الإِنسان مهما كانت مهنته ومكانته أن يترك ما افترض الله عليه، وأن يجتنب ما أمره باجتنابه، فكيف نقبل من الأديب ـ وهو رائد في قومه ـ أن لا يكون ملتزماً بإسلامه، عارفاً بواجباته المفروضة عليه، التي تتلازم مع صفة الإِسلام.

والمسلم إن كان صادقاً في إيمانه وإسلامه، لا يمكن أن يكون بتفكيره وسلوكه مع الجاهليين والمشركين والمنافقين من أعداء الإِسلام.

وما دام الأديب واحداً من المسلمين، بل يزيد العاديين منهم بسعة تفكيره، وشدة حساسيته، وقوة ملاحظته، ما دام كذلك، فلا بد من التزامه بصفة المسلمين ليكون أهلاً (للأديب المسلم).

أما إذا كنا نقبل من الأديب أن لا يلتزم بالإِسلام وبما افترض الله عليه في سلوكه وعمله وتفكيره، فإننا حينها لا نعجب إن رأيناه يدعو للآثام باسم الفن، ويروِّجُ المنكر والفساد باسم الأدب، ويقبل المحرمات ويقترف المنكرات باسم الضرورات والعصر، ويخلط في التفكير والمنهج باسم الموهبة والأدب.

وإذا كانت المسؤولية عند الله على قدر الطاقة والمعرفة، فإن مسؤولية الأديب جد كبيرة، وحسابه عند الله عظيم وشديد، لأنه موضع الريادة والتوجيه ومناط القدوة والمثل، لما أعطاه الله من موهبة وفكر، وإحساس وقدرة، لهذا ليس مقبولاً منه أن يكون سلوكه وفكره مناقضاً لما يعتقد و «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه».

فالالتزام في الأدب الإِسلامي، لا يقاس بالمقاييس التي وضعتها المذاهب المادية الأخرى.

بل لا بد وأن ينبع الالتزام من العقيدة أولاً، ومن شرع الله عموماً.

بل لا بد أن ينسجم الأديب المسلم مع نفسه وحقيقته، وكل أديب مطالب بالصدق مع ذاته، فكيف يكون أدب الأديب إن لم يكن واقعه وحقيقته الشعورية والعملية نابعة من الإِسلام؟

إن المذاهب المادية ترفض ـ في كثير من الأحيان ـ الأدباء الذين يسلكون سلوكاً يتناقض مع ما يؤمنون، هذا في واقع هذه المذاهب المادية، على ما فيها من تناقض وجهل وقصور. فكيف نقبل من المسلم أن يتناقض مع نفسه، يتكلم عن الإِسلام وهو بعيد عن الإِسلام؟ يدَّعي الإِسلامية وهو جهول بالإسلام، مجافٍ له في أعماله وسلوكه؟

والذين يحصرون الالتزام في الأدب الإِسلامي في التعبير عن قضايا المسلمين، والتحدث ضمن المفاهيم الإِسلامية، أو يحرصون على انسجام الأثر الأدبي مع التصور الإِسلامي، إن هؤلاء مخطئون وواهمون، وفي هذا الرأي يفتحون باباً خطراً، باباً أقرب ما يكون للنفاق، وتخريب ضمائر المسلمين، وضرب الإِسلام من الداخل.

إن هذا المفهوم يفصل بين الحقيقة والواقع، وبين الأديب والأثر، ويجعل من الإسلام فلسفة فكرية باردة.

إنهم يُفرغون الإِسلام من روحه، هذه الروح التي حوَّلت النصوص إلى واقع عملي يعيشه الناس في كل شؤونهم، ومن هنا جاء خلود كتاب الله عز وجل، وحفظ سنة الرسول ﷺ.

فإذا كان المسلم الحقيقي أكثر الناس التزاماً بما يعتقد فكراً واعتقاداً

وسلوكاً، وأكثر حرصاً على انسجام ذلك في أدبه وتعبيره.

وحينها سيكون أدبه أدب الحياة وأدب الواقع، ويستطيع أن يعطي الصورة الحقيقية عن الحياة وعن الإِنسان، وعن المجتمع من خلال تصوره الإِسلامي. وإذا كان بعض الناس يقبلون أن يقوم الانفصال بين الأديب وأدبه، فإن الإِنسان المسلم لا يقبل ذلك، وهذا هو الصدق، وهذا هو الإِبداع.

إن هذا الموقف يجعلنا نتحرر من القيود والموازين التي وضعتها مدنيات هذا العصر للفن والأدب والفكر والتربية والسلوك، ونرفض المذاهب الأدبية التي انبثقت من تصورات وضعية، ومجتمعات صنعتها العقائد المنحرفة الضالة.

والمسلمون ليسوا بحاجة إلى ذلك، لأن شرع الله عز وجل كفيل بأن يرعى أي مجتمع إنساني يُقبل راضياً على دين الله، ويضمن له السعادة في الدنيا والآخرة.

والأدب الإِسلامي مطالب أن يخط لنفسه خطاً ملتزماً متميزاً، وأن لا يخضع إلى ما تعارفت عليه المذاهب والمدارس الأخرى، لأنه سيترك حينها منافذ خطرة تفجر عناصره من الداخل، وتقتل روحه قبل أن ينهض من جديد.

إن الغرب يرفض كل شيء له صلة بالإسلام، ولا يقبل الحق أو الخلق أو الفضيلة إن كانت من المسلمين، فكيف نركن لهم، ونقبل مناهجهم ـ مع معرفتنا لدوافعهم، ومعرفتنا لعقائدهم، واطلاعنا على مخططاتهم التي أصبحت معلنة واضحة.

فالأدب الإِسلامي التزام بالإِسلام، والتزام بالكلمة، والتزام بالعقيدة، والتزام بالسلوك، والتزام بالعالم الإِسلامي الذي نريده محتكماً إلى دين الله عز وجل.

إنه أدب يقوم على تصور متكامل، له من المدى ما لا يحلم به بشر غير المؤمنين، وله من الرحابة ما يجعله يتآلف مع الأرض والسماء وما حوتهما في تناسق لا يدركه إلا المؤمنون، ومحبة لا يذوقها إلا الصادقون.

بعدها يجب أن لا نخشى على أدبنا الإِسلامي إذا انتفى منه كثير من الذين يتسلقون عليه، ويستظلون تحت لوائه، أو يلبسون شيئاً من حاجاته، أو يريدون الارتقاء بسببه.

فهو القوي، وهو الطيب، وهو الجميل، وهو الرحب، وهو الصادق، وهو المواهب والإِبداع، وكلما تعمقت جذورنا، وتوضحت سبلنا استطعنا أن نقطع أشواطاً، ونقيم حضارات من جديد.

في دراسة التّاريخ الأدَبي

إن إنشاء أدب جديد، منبثق من التصور الإِسلامي، ومعبر عن الروح الإِسلامية، لا ينفصل عن دراسة التراث العربي القديم، منذ الجاهلية الأولى حتى اليوم، وإعادة التقويم لهذا التراث على أسس صحيحة وواضحة ثم يتبع ذلك دراسة الآداب الأخرى، وتصنيفها طبقاً لهذا التصور الواضح.

ولكننا حين نقرر هذه الحقيقة، ينبغي أن نعرف السبيل الذي نسلكه للوصول إلى ذلك، وأن نهيِّىء الجهود والمواهب والإِمكانات لذلك.

لقد اعتاد دارسو الأدب في العصر الحديث أن يطبقوا مقاييس العصر ومناهج النقد الحديثة، والفلسفات المعاصرة، على الأدب العربي القديم رغم ما فيها من تباعد وتناقض - أحياناً - ورغم تجافيها مع روح هذه الآداب، ومع حقيقة العصور التي يحاولون درسها وتقويمها، لذلك جاءت هذه الأحكام متضاربة، وبعيدة عن الموضوعية، تتحكم فيها المناهج الحديثة، وتفرض عليها هذه النتائج.

وأولى بنا أن لا ننسى هذه الحقيقة: وهي أن الأدب لا يقاس إلا بمقياس عصره الذي قيل فيه، وبمدى تعبيره عن روح العصر والحياة التي وجد فيها، وليس مطلوباً منه أن يساير التطورات التي جدّت بعد مئات السنين، أو الانسجام مع روح العصور التي أعقبته بعد مدى طويل، فضلاً عن الخطأ الذي ينتج عن تطبيق مناهج للدراسة والتقويم بعيدة عن روح هذا

الأدب، ولا تمتّ إليه بصلة من قريب أو بعيد، بل وتخالفه في التصور والاعتقاد، والنظر إلى كل أمور الحياة.

ولا بد أن يكون المقياس العام في دراسة الأدب منبثقاً من حقائق الحياة كما فطرها الله سبحانه، وكما وضحها كتابه الكريم، حيث أنها لا تختلف ولا تتبدل، ولا تتغير من بيئة إلى أخرى إلا في الجزئيات والمظاهر، لا أن تكون هذه المقاييس ناتجة عن تهويمات الفلاسفة وأحلام العابثين من أعداء البشرية والحاقدين عليها، والعابثين بالقيم، الناقمين عليها.

وأما ما نراه من دراسات للأدب القديم، وتطبيق النظريات الغربية أو الشرقية عليه، فذلك أمر مفتعل، ليخدم أغراض المذاهب الفكرية والسياسية المختلفة.

وكثير من دارسي الأدب العربي، من مستشرقين وغيرهم من أبناء العربية الذين تتلمذوا على الغربية وأربابها، يطبقون النظريات الغربية الحديثة في الدراسات الأدبية المختلفة.

لقد راح كثير منهم يبحث في عصور الأدب المختلفة، وفي نصوصه الكثيرة عن شواهد تؤيد هذه النظريات والفلسفات، وتنطبق على تصوره للحياة، ويضرب بعرض الحائط كل الحقائق التي انبثق منها هذا الأدب، وكل الحقائق التي تركها لنا تاريخ تلك العصور، بل ويغفلون متعمدين مئات النصوص الأخرى التي تقف حائلاً دون إثبات ما يريدون. وهذه السبل التي ينتهجها هؤلاء الدارسون لن تصل إلى الحقائق الموضوعية، ولن تكشف عن خصائص العصر، لأنها انطلقت من منطلقات خاطئة. والسبيل الصحيح للوصول إلى الحقائق الموضوعية في دراستنا للأدب القديم تبدأ من دراسة التاريخ العربي القديم، وتاريخ الإسلام من مصادره الأساسية، بعد التمحيص والتمييز لتوثيق الصحيح ونبذ الدخيل أو المشوه أو الموضوع.

إننا نملك الوثائق المهمة التي تمدنا بالأساس الموضوعي لهذه الدراسة بعد أن نشمر عن ساعد الجد، ونتمتع بروح متجردة بعيدة عن ردود الأفعال، وبريئة من الخلفيات المسبقة.

بل لا يمكن أن نصل إلى الحقائق إلا بعد أن نتخلص من رسوبات العصر الحديث وتشويهاته للتاريخ والأدب والحياة على أيدي طلاب السلطة، وأتباع السياسة، وحملة المذاهب الفلسفية الحديثة التي أرادت أن تُقصي منهج الله عن الأرض.

إن هؤلاء تركوا آثاراً خطيرة في الدراسات الحديثة، بل حاولوا إعادة التاريخ كما يحلو لهم أن يفسروه، وفعلوا كثيراً من الإِفساد والتشويه، وحشوا أذهان الطلبة والدارسين بهذه النظريات والآراء.

ومن خلال هذه الدراسة المتجردة نستطيع فهم حقائق العصور السابقة ومزاياها الحقيقية، ودوافع الناس واهتماماتهم، لأن التاريخ يضفي على الصورة أضواء كاشفة تزيل اللبس، وتوضح جوانب الموضوع.

وهذا يمدنا بتقويم صحيح للثقافة التي كانت آنذاك، وللأدب الذي تركه لنا الأجداد، ويكون تفسيرنا للأحداث، والنصوص معاً قائماً على فهم متكامل للعصر، غير بعيد عن الروح التي كانت تسوده وغير متجاهل للعناصر الفاعلة فيه.

* * *

وكذلك فإن دراسة هذا الأدب لها علاقة بفهم اللغة العربية وأسرارها وفهم تطورها، وعلومها، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بفهم كتاب الله سبحانه وتعالى، لأنه كتاب العربية الأول، الذي ثبّت قواعد اللغة وأعطاها مدلولاتها البعيدة، وفتح لها آفاق الدنيا، وأضفى عليها جمالاً أخاذاً يتناسب مع خصائصها.

وحديث رسول الله ﷺ والتراث الأدبي الموثوق للعصر الجاهلي والعصور الإسلامية الأولى، يحتاج منا إلى فهم، وتذوق، وتمحيص لما فيه من خصائص تكشف لنا طبيعة هذه اللغة، ومضمون هذا التراث.

وضرورة ذلك تنبع من كون اللغة أداة تحمل طابع الأمة، وتعبر عن شخصيتها وتصوراتها، ولذلك فإن كتاب الله العزيز هو الذي يعطي هذه اللغة صفتها، وكل محاولة لإبعادها عنه نوع من التهديم للأمة، وطعن لعقيدتها، وشخصيتها، وليست محاولات الخارجين عن هذه الأمة في إعطاء اللغة مدلولات جديدة، وإعادة تركيبها بطريقة مستحدثة إلا نوعاً من الحرب والمكيدة لهذه الأمة ولعقيدتها، ومحاولة ماكرة لحفر هوة عميقة بين الأجيال القادمة وكتاب الله العزيز الحكيم، حين يصلوا إلى الجيل الذي يجهل كتاب الله، ولا يفقه شيئاً فيه.

* * *

وإذا عدنا لكثير من الدراسات المعاصرة نجد أشياء غريبة، من الأحكام البعيدة، والاستنتاجات المجافية لروح الحقيقة والعصر.

ولقد كان ذلك متعمداً في مرات كثيرة، ولا سيما في دراسة أدب العصور الإسلامية، وسبب ذلك بُعد هؤلاء الدارسين عن فهم الإسلام فهماً حقيقياً، وعدم دراستهم للمجتمع الإسلامي الذي بنته العقيدة، وعدم اطلاعهم على التاريخ الإسلامي من مصادره الأساسية الموثوقة، بل كانت أحكامهم مبنية على دراسات تاريخية واجتماعية قدمها لهم المستشرقون وتلامذتهم، حتى صارت تلك الدراسات هي المصادر الموثوقة لديهم بل هي المصادر الوحيدة أيضاً.

ولهذا جاء تفسيرهم للظواهر، واستخلاصهم للنتائج مبنياً على الاتجاه المادي النفعي، ووفق المصالح الشخصية، والأغراض التي سعى إليها المستشرقون ومن وراءهم.

إنه أمر عجيب أن نتعرف على لغتنا، وأدبنا، وتاريخنا عبر بوابة المستشرقين، ونأبى أن نعود لمصادرنا لإدراك ما فيه من حقائق تساعدنا على كل العلوم، والتجارب بصورة صحيحة.

وكان الأدب القديم عندهم أدباً يؤثر النفعية العاجلة، والتملق الشخصي والهوى الذاتي، مع عجزه عن التعبير عن عصره آنذاك.

وكيف لا يصلون إلى هذه النتائج ما داموا ينطلقون من منطلقاتهم الخاصة البعيدة عن الحقائق الثابتة، لا سيما وأن أدبنا بشكل خاص، وتراثنا بشكل عام كان أثراً من آثار العقيدة التي صنعت هذه الحضارة.

ولذلك لا يمكن أن نجد في العصر الحديث أو القديم - المعروف تاريخياً - مجتمعاً آخر يشبه المجتمع الإسلامي في أسس حضارته، وخصائصه ودوافعه وأهدافه.

مجتمعنا كانت تقوده شريعة ربانية، ومنهج رباني، لا مجال فيه للهوى والمنفعة الخاصة، والنظرة القاصرة، والأنانية أو التعصب أو الشطط، لأن منهج الله بريء من هذا كله.

بينما قامت مجتمعات الأرض كلها غيره على مناهج وضعية تتحكم بها الأهواء وتتسم بالعجز والقصور والجهل والتعصب والشطط.

والذين عاشوا في ظل هذه المجتمعات، وتربوا على هذه العقائد الوضعية لا يمكن لهم أن يفهموا حقيقة المجتمع الإسلامي، ولا يمكن لهم أن يتخيلوا ذلك الأفق السامي الذي وصلت إليه هذه الأمة بفضل العقيدة، ولذلك يلتمسون التفسيرات الغريبة، ويبحثون عن النقائص لكي يجعلوا منها شيئاً كبيراً يشوِّه تاريخنا وتراثنا.

وكيف يمكن للذين ينكرون الدين أصلاً، ويكفرون بآيات الله أو يرفضون الخضوع لشرع الله، ويدَّعون لأنفسهم القدرة على وضع منهج

يحكم حياة الناس، وينظم شؤون الحياة، قلت: كيف يمكن لهؤلاء أن يقبلوا تراثاً قام على أساس العقيدة؟

وكيف يسلِّمون بشيء يتناقض مع عقائدهم؟

إنهم منذ البدء يلتمسون أيّة ثغرة لتهديم هذا الطود الشامخ، ويستغلون كل مناسبة لتشويه الحقائق وإضلال الناس.

وهذا جزء من رسالة الغرب الصليبي، والشرق الماركسي، وكل الذين اتبعوهم وآمنوا بمناهجهم، هذه الرسالة التي حملها المستشرقون، والمبشرون وبثوها في كل زاوية من زوايا حياتنا باسم العلم والموضوعية، والدراسة المجردة.

وأثمرت جهودهم الطويلة عندما غفل العالم الإِسلامي، ونام نومته العميقة، ولم يستيقظ إلا على أصوات الغرب الذي بدأ يعلم أبناء المسلمين ما يريد، ويلقنهم كل ما يعتقد.

من أجل هذا، فإن محاولة إنشاء أدب إسلامي جديد، وبعث الروح الإِسلامية في الأدب المعاصر لتكوين تيار أدبي أصيل يعبر عن الحياة بأصدق تعبير، إن ذلك يتطلب العودة إلى هذه المنابع الأولى، إلى التراث العربي القديم، لا بروح التقديس أو التقليد، وإنما بروح الوعي والإِنصاف لدراسته على أسس صحيحة، تتفق مع طبيعته، وطبيعة عصره، وتنسجم مع الحقائق التاريخية التي عايشت هذا الأدب.

وبعد أن نعيش معه، ونتمثل عصره، ونفهم قواعده نستطيع أن نستخلص النتائج الموضوعية.

وإنني على ثقة بأن الدارس الذي يسير على هذا المنهج أو يحقق هذه الشروط في دراسته سيصل إلى حقائق موضوعية، ونتائج تزيدنا فهماً ووعياً لماضينا وحاضرنا.

وهذا العمل ليس سهلاً ميسوراً، بل يحتاج إلى جهد مخلص، ودأب صبور ومواهب أصيلة، وثقافة واسعة، مع عزائم شابة غيورة على العقيدة وعلى هذا التراث، وأمينة على الحق لا تخاف فيه لومة لائم، ولا ينحرف بها الهوى أو الخوف أو المنفعة ذات اليمين أو اليسار. وإن هذا العمل يحتاج إلى عودة واعية إلى تراثنا العظيم لقراءته وتوثيقه، ودراسته وتبويبه، وفرز الأصيل الصحيح، من المزوَّر الكاذب، ومعرفة الثابت الموثوق، من الدخيل المدسوس، حتى نطمئن إلى النصوص، والحوادث والأخبار التي ستجري عليها الدراسة. وكذلك فإن الدارس يحتاج إلى فهم العقيدة فهماً واعياً، وفهم التاريخ الإِسلامي فهماً دقيقاً، لأن أكثر تراثنا متأثر من قريب أو بعيد بالعقيدة، ومرتبط بالتاريخ.

إنها أمانة في أعناق المخلصين، الذين يرون المكائد تحاك ضد عقيدتنا وأمتنا، بالفكر والتشويه، والدس والدعاية والمال والسلاح. وإن الله مع الصادقين.

ملاَحَظات عَلى طرِيق الأَدَب الإسلاَمي

من الظواهر المشجعة أن نقرأ بين حين وآخر دعوات صادقة لإبراز الأدب الإسلامي المعاصر، وتأصيله في تيار متميز عن غيره من التيارات الأدبية المختلفة، ومما يدعو إلى الاغتباط أن تظهر دراسات جادة عن الأدب الإسلامي القديم والمعاصر، وأن يتجه عدد من الدارسين المخلصين لإبراز القيم الحقيقية الأصيلة لهذا الأدب في فنونه المختلفة وعصوره المتعاقبة.

وأودُّ هنا أن أساهم في بعض الملاحظات التي تحدد معالم هذا الأدب، وترسم إطاره الذي نتمناه.

وليس خافياً على المهتمين بالأدب الإسلامي ما لدراسة أدبنا القديم من فائدة، وما يمكن أن تعطيه من النتائج المهمة التي تحدد مساره وتطوره، ولذا فمن حق أدبنا المأمول أن يرتكز على نتائج ودراسات جادة لأدبنا وتراثنا، من خلال نظرة إسلامية متميزة، وتصور إسلامي واضح، وفي سبيل هذه الغاية نبذل هذه المحاولة لتحديد بعض النقاط.

* * *

ومن أهم هذه الملاحظات التي بدت على الدراسات الأدبية الحديثة لأدبنا العربي في عصوره المختلفة، هي أن هذه الدراسات عمدَتْ ـ كلها تقريباً ـ إلى تقسيم الأدب إلى عصور مختلفة، ونظرَتْ إليه من خلال هذا التقسيم، حتى صار معروفاً أن الأدب العربي ينقسم إلى العصور التالية:

العصر الجاهلي، العصر الإِسلامي وعصر بني أمية (ووقد يفترقان في بعض التقاسيم)، العصر العباسي، عصر الدول المتتابعة (الانحطاط)، العصر الحديث، مع بعض التفصيلات أحياناً.

وهذه التقسيمات تبدو مقبولة للوهلة الأولى، لأنها اقترنت بأسماء المراحل التي مرت بها الدولة الإِسلامية، والخلافة في تطورها التاريخي.

ولكن هذا التقسيم يؤدي إلى أخطاء فادحة في النتائج، وتحدد المنظار الذي تقسر القارىء على النظر من خلاله إلى أدبنا، بل وتحدد له مساراً معيناً فلا يرى إلا ما كان على جوانب هذا المسار وفي طريقه.

إنه منذ البداية يقطع الدولة الإِسلامية إلى قطاعات مختلفة وَيَسِمُها بِمَيْسَمِ الحاكم فقط، مع أنها بقيت إسلامية في مضمونها وروحها ومنطلقاتها، مع اختلاف في التفاصيل وتفاوت في درجة الالتزام والتطبيق العملي للشريعة الإِسلامية.

ولذا فإن صبغ فترة زمنية معينة للأدب بصبغة معينة تتناسب مع الحاكم فقط، ومع السلطة التي تدير شؤون المسلمين غير مسلّم به، لأنه يتجاهل الناس، كل الناس، ويتجاهل تلك الروح الإِيمانية، واليقظة الواعية التي كانت تدفع الناس دفعاً لقول الحق، والجهاد في سبيل الله، ورفض الطاعة ـ أحياناً ـ للحاكم إذا أخطأ أو حاد عن الحق، فضلاً عن أن هذا التقسيم يقصي الأدباء الذين لم يكن لهم حظ في الاتصال برجال الدولة.

وهذا التقسيم يبعد الهوية الإِسلامية عن الدولة والأدب والحياة. ويضع محلها هوية العشيرة والقبيلة وغيرهما، أي يبعد هوية المنهج الرباني ليضع هوية مناهج أخرى في تمييز الناس وتقسيمهم.

ونحن حين نعود إلى تاريخنا الوثيق نرى أن علماءنا وأبطالنا، والعظماء من هذه الأمة الذين ربوا تلامذة كثيرين، وأثروا في الناس، وشاعت آراؤهم، وكان لهم قدر وأثر، كل هؤلاء برزوا في كل هذه الأعصر.

وكذلك فإن حركة الوعي الإِيماني ظلت تدفع الناس إلى مراقبة الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله حتى في أحلك ساعات الضعف والمحن.

إن هذه الحركة الإِيمانية الواعية هي التي أوقفت المدّ الطاغي للمغول والتتار والصليبيين، وهي التي طبعت مجتمعاتنا بالإسلام وحافظت عليه.

بل وهي التي أذابت هذا المد لأن حرارة الإِيمان كانت أقوى من طغيان هذا المد المادي الجائر، فلذلك صمدت حتى ابتلعته وتمثلته وأخذت ما فيه من الخير، وحولته إلى طاقات تندفع لتحمل الإِسلام إلى مشارق الأرض.

فكيف نتجاهل ذلك ونقبل أن ننظر إلى الأدب من خلال المنظار العشائري، ونسلّم لواضعيه ـ ضمناً ـ بتنحية الإِسلام عن الحياة بعد فترة الراشدين؟

والشيء الآخر، فإن هذا التقسيم يدفع الدارس ـ دون وعي ـ إلى تتبع الظواهر الطفيفة التي لا تعدو كونها فروقاً فردية، ليجعل منها فروقاً بين دول وعصور، وليبني عليها نظرة تطورية معينة ويستخلص منها ما يسمُّونه بمميزات العصر، وسمات الأدب، ويربطون هذه المميزات والسمات بمسمى العصر.

هذا فيما يتعلق بالتقسيم الزمني، أما في مجال المضمون فقد انتهجت الدراسة تقسيم الأدب إلى موضوعات محددة أيضاً: كالمدح، والهجاء، والغزل، والرثاء، والحكمة، والوصف و. . . وهذا التقسيم يتربط بالتقسيم الأول من ناحية، ويكرس موضوعات الشعر الجاهلي من ناحية أخرى.

ومن هذه الملاحظة تبرز لنا الأمور التالية:

١ ـ إن إخضاع الدراسة التاريخية للأدب إلى التقسيمات السابقة، تجعلها ترتبط بأمور سياسية، وصراعات مذهبية وفكرية، تجعل الذين

وضعوا هذه التقسيمات يطبعون الحياة كلها بطابعها، ليحمّلوا الأدب ما لم يكن يحمل في الحقيقة آنذاك، وهذا يخدم الفلسفات الحديثة التي تهدف إلى ربط الأدب بالمصالح المادية أولاً، وإلى تقسيم ولاءات الناس وارتباطاتهم ببعض حسب المادة أو الجنس ـ كالقومية والاشتراكية ـ والوطنية والرأسمالية وغيرها، فضلاً عن وسم الشعر ـ خاصة ـ بميسم الافتعال، والتكلف، والارتباط بالحكام عموماً.

٢ ـ وهذه التقسيمات تتجاهل إلى حد كبير تأثير الإسلام في الحياة ـ عامة ـ والأدب ـ خاصة ـ ومدى ارتباط المسلمين بشرع الله في تلك العصور، ومدى التزامهم بتطبيقه والتخلق بأخلاقه، وتنفي خضوع الأدباء خاصة، والحكام وبقية الناس بشكل عام لمنهج الله، وكأنها تريد أن تقول للناس: إن المؤثرات الحقيقية التي ساهمت في إنتاج هذا الأدب هي مؤثرات المادة والمنفعة، أو العصبية العشائرية، أو الولاء للوطن، وهكذا. . . وإن أي دافع آخر غير هذه لم يكن له تأثير يذكر، فهم يبرزون أي دافع بعيداً عن دافع العقيدة وهكذا، فالمدح والهجاء والتكسب والرثاء. . . كل ذلك مرتبط بالمصلحة المتمثلة في الحاكم أو الطبقة أو المال، أو المنصب وغير ذلك من الأشكال.

٣ ـ وينبغي أن لا ننسى ارتباط هذه التقسيمات بدراسات المستشرقين والمبشرين الذين كانت لهم غاياتهم وأهدافهم البعيدة في دراسة التاريخ الإسلامي والأدب العربي، الذي هو وليد هذا التاريخ، وتأثير ذلك على المجتمع المعاصر ولا سيما المتعلمين من الأجيال المتعاقبة.

إن لهم أملاً يسعون إليه وهو إبعاد المسلمين عن دينهم وذلك بطريق المؤثرات المختلفة، بعد إقناعهم بأن الإسلام كغيره من الديانات التي عرفتها البشرية والفلسفات التي اصطنعها الناس، كان له تأثير مؤقت ومحدود، وإلى مدى قصير لم يتعدَّ مرحلة الخلفاء الراشدين، ثم عادت الحياة إلى مسار آخر بفعل المؤثرات المادية التي يريدون إبرازها.

ويحاولون ـ بمكر ودهاء ـ أن يبرزوا جوانب أخرى، كالتقدم العلمي، والاتساع الثقافي في عصور الإِسلام المختلفة، والإِيحاء بأنه كان بعيداً عن تأثير الإِسلام، وأن هؤلاء العلماء كانوا مضطهدين أو من المتحررين الذين خالفوا علماء الدين في عصورهم، وكثيراً ما يتبعون الحديث عن سيرة هؤلاء العلماء بعبارة «وثار عليه الفقهاء» وكذلك يصورون الحاكم والعالم وهما يدفعان بعجلة التقدم، ويطبعان العصر بطابعهما دون أن يكون للدين تأثير في ذلك كله.

وهكذا أرادوا أيضاً أن يدرسوا أدبنا بعيداً عن العقيدة، وبعيداً عن المجتمع الإِسلامي. وكأنما كان الدين يتمثل في طبقة معينة، لها عالمها ونتاجها، بينما كان المجتمع ـ والأدب من ضمنه ـ في جانب آخر، وهذا مأخوذ من تصورات الغربيين للدين والكنيسة عندهم، وأرادوا أن ينقلوها بلطف، وفي أثواب العلم والدراسات الموضوعية إلينا.

٤ ـ ومن مظاهر هذه الدراسات، والمنهج المتبع فيها أنها كانت تتبع النقاط الضعيفة، والنماذج الشاذة، والانحرافات الفردية لتجعل منها كياناً، وتتخذها معلماً على العصر كله.

وهكذا برز الماجن، والشاذ، والمتتبع لعورات المسلمين، والملحاح، وأوكار الماجنين، ودعوات الحاقدين، حتى لو لم يكن لهذا دور أو تأثير، وصارت منارات للعصور، ودوراً للأدب والإِشعاع.

ومن يتبع الدراسات التي انصبت على كل شاذ أو ماجن، أو خارج عن منهج الإسلام يظن أن الحياة ـ آنذاك ـ كانت بهذا الشكل. كم دراسة انصبت على الخمريات، ومجون عدد من الشعراء، والأفكار الشاذة عند عدد من الشعراء!! وكم من الدراسات راحت تصور ألف ليلة وليلة وكأنها الكتاب الفذ الذي يصور حقيقة المجتمعات الإسلامية آنذاك. إن ذلك صورة من صور الكيد للإسلام والمسلمين، ولم يكن لمثل هذه الصور أن تنطلي لو لم

يجهل المسلمون دينهم وتاريخهم، حتى اكتفوا بفهم الإسلام مما كتبه المستشرقون وأمثالهم، فأين الموضوعية في هذا؟!

ومن الغريب أن هذه الدراسات أصبحت أساساً في الدراسات الجامعية والبحوث العلمية وقَبِل الدارسون هذه النتائج، وبنوا عليها، واستمروا بها.

إن هذا المنهج لتقسيم تراثنا الأدبي يبدو في ظاهره منطقياً ومقبولاً لدى الدارسين لأنه اتخذ المسار الزمني، وراعى تغيرات الدول، ولكنه غير صحيح في حقيقته لأنه صبغ الأدباء بأصباغ ليست أصيلة، وأبرزت للأعصر مميزات لا تنسحب على العصر كله، وأرادوا منها أن ينأوا في نتائجهم عن تأثيرات الإِسلام، أو إظهاره كعامل ثانوي، ولقد حققوا كثيراً من أغراضهم رغم ما يبدي بعض الغيورين من حماس للتراث أو يقولون من حجج.

* * *

بعد هذا من الخطأ أن يتناول الأديب المسلم، والناقد المسلم هذه النتائج بالتسليم، ويظل مستعبداً لهذه التقسيمات والأشكال، مهما كانت ضخامة الدراسات التي نتجت عنها.

بل إنه من الجد في الدراسة، والمسؤولية أمام رب العالمين، أن يراجع المسلم نفسه أولاً، فيتخلص من الآثار الخاطئة، والتصورات المنحرفة التي حشيت بها أذهاننا، وملأت كتبنا، وتدسست إلى وجداننا وأفكارنا مما أخذناه في مدارسنا وجامعاتنا، وما ربينا عليه في مجتمعنا الذي يسير في دراساته ومناهجه على أسس التفكير الغربي، والمناهج الغربية، حتى بات التفريق بين الأصيل والدخيل أمراً شاقاً، وغدونا أدوات ووسائل من ضمن المنهج ذاته نحمله وندافع عنه، ونفكر على أساسه.

إن عملية المراجعة الذاتية للتحرر من رواسب هذه المناهج عملية مهمة وخطيرة تحتاج إلى الصبر، والوعي، والمعرفة، والعزيمة التي ترفع صاحبها إلى مرتبة الجهاد.

وبعد المراجعة، نعود إلى تراثنا الأدبي لاستقرائه من جديد، ومراجعته ودراسته بنظرة إسلامية واعية، وبتقويم موضوعي عادل.

وأقصد باستقراء التراث بنظرة إسلامية واعية: أن يتسلح الدارس أولاً بتصور إسلامي صحيح واضح، تجعله مطمئناً متوازناً، بعيداً عن التعقيدات أو ردود الأفعال، سليماً من اللوثات الحديثة التي تريد أن تلبس الإسلام لباساً غربياً، وأن يكون ملتزماً بتفكيره وسلوكه بهذا التصور لكي لا يقع في اللبس من خلال معايشة الواقع أو المعايير الدخيلة، ولا سِيَّما حينما يكون بعيداً عن الإِسلام في التصور والتطبيق.

لهذا فإن الدارس ليس معفياً من مراجعة مفهوماته عن الإِسلام، وفهم حقيقة الألوهية كما بينها لنا رب العالمين في كتابه العزيز، وكما وردت في أحاديث رسول الله ﷺ، وفهم حقيقة الإِنسان المخلوق وصلته بخالقه، وغاية وجوده، ومعنى استخلافه، ومعرفة حقيقة الكون، مع كل ما بين هذه الحقائق من صلات وعلائق.

فإذا أصبح هذا التصور واضحاً لدى الدارس، يبدأ بحثه عن ذلك التراث، بحس صادق، ووعي بصير.

ومعرفة تراثنا الأدبي ليس بعيداً عن تاريخنا العام، وتطور مجتمعنا الإِسلامي وطبيعة العوامل التي أثرت في تكوينه، وساهمت في توجيه الأحداث، لكي لا يفوته اكتشاف الحقيقة، ومعرفة العناصر المدخولة، أو الشاذة. وحين يتعرف إلى هذا الإِطار العام يدرك كثيراً من الحقائق التي دفعت الدارسين إلى توجيه تاريخنا الأدبي إلى المنحى الذي نراه.

والأدب ـ أيضاً ـ لا يعدو كونه نتاجاً إنسانياً وصورة من التفاعل بين الإِنسان والكون، أو من علاقة الإِنسان بأخيه، وأحياناً من علاقة الإِنسان بربه الخالق المدبر.

وهو من خلال ذلك يعبر عن أثر هذه العلاقات في نفسه ومجتمعه، ويصور نظراته وأفكاره في الحياة بكل ألوانها وظروفها.

فإذا وضعنا النتاج الأدبي، والأديب، تحت هذا المنظار تتغير الصورة والنتائج، ونكتشف روحاً جديدة كانت مطموسة في معترك الصراع وجلبة الدراسات الموجهة، لأن أكثر الدراسات المعروفة كانت تنظر للأديب والأدب من خلال الإِطار المادي البحت، ومن خلال التصورات الإِنسانية التي استبعدت منهج الله وشرعه من مجال التطبيق العملي، أو من مجال التطبيق والاعتقاد، معاً، ومن خلال الأذواق الغربية التي سيطرت على النقد الأدبي كله.

ولقد استطاعوا عبر قرن من الزمان أو يزيد أن يصلوا إلى نتائج خطيرة جعلوها أصناماً تستعبد الدارسين لأجيال كثيرة بعدهم، واستطاعوا إقصاء عدد من الأجناس الأدبية المهمة، كالرسالة، والخطبة، والموعظة، ويصمونها بالصفات السيئة.

وكم وقف هؤلاء أمام نزعة شاذة وتافهة وقفة المعجب، فألحُّوا بالبحث والتنقيب حتى صنعوا منها فناً مبتكراً، وصوروها مدرسة مبدعة، ورفعوا أصحابها إلى مستوى رواد الإِصلاح، وجعلوا آثارهم هدى يسير على منواله من أتى بعدهم من المعجبين.

وكم أهملوا من آثار قيمة، ونصوص ممتازة، وأدباء نابغين، لأنهم لم يسفّوا في القول، ولم يصوروا الشاذ والفاسد، ولم ينخرطوا في صفوف العابثين، ولم يقربوا من المجان والفُسَّاق، ورفضوا الطيش والجحود والطغيان.

أما الدارس المسلم فلا ينبغي له أن ينظر بهذا المنظار، ولا يقبل أن يستمر في التسليم بهذه النتائج، بل لا بد من إخضاع الدراسة الواعية إلى التصور الإِسلامي الصحيح.

* * *

ولعله بعد هذا من الصعب إيضاح الصورة التي سيكون عليها أدبنا، والنتائج التي تسفر عنها مثل هذه الدراسات الجادة الموضوعية حينما تعاد كتابة تاريخه بنظرة إسلامية تعتمد الحقائق لا الأوهام، وتنظر إلى الإِنسان كمخلوق لا كخالق، وإلى الأشياء كأشياء في إطارها الحقيقي بلا تضخيم أو تعقيد أو إيهام.

وليس هذا الأمر بعيد المنال، مهما كانت الصعاب، إذا توافرت لمثل هذا العمل عزائم الرجال المخلصين، الذين يتسلحون بالإِيمان البصير، والصبر الطويل، والموهبة الصقيلة، والموضوعية، والعدل، والفهم وغير ذلك من صفات الباحث.

وعندها سنخلص إلى نتائج تُطْمئنُ الدارسين، وَتُسِرُّ عَيْنَ الصادقين، وتكون شاهد عدل أمام الانحرافات التي ورثها جيلنا، وطريقاً يسير فيه المنصفون من المسلمين وغير المسلمين في دراسة الأدب العربي وغيره من الآداب الأخرى.

ولكي تقوم الدراسة على أسس واضحة لا بد من وضع منهج يستند عليه البحث وتقوم على أساسه الدراسة.

وهذا المنهج ينبثق من التصور الإسلامي، وتفرضه الدراسة ذاتها بعد جمع الآثار التي تشملها هذه الدراسة.

إنه عمل مجهد وشاق، ولكنه ضروري ولا شك، وأنا على ثقة بأن الخطوة الأولى حينما تبدأ في الطريق الصحيح تتبعها خطوات وخطوات بتوفيق من الله عز وجل ما دام ذلك لمرضاته.

ملاحظات وإيضاحات

لقد أصبح موضوع الأدب الإسلامي مطروحاً في الساحات الأدبية والجامعات، فبعد أن كان الاسم مستغرباً على صفحات الأدب والنقد، عاد كثيرون ليعترفوا بأن هناك أدباً إسلامياً، له سماته ومنهجه ومميزاته، وله آثاره القديمة والحديثة.

وإذا كان بعض المهتمين بالأدب، من أتباع المذاهب الأجنبية ما زالوا يصرون على مهاجمته واستبعاده، فإنهم ـ في الوقت نفسه ـ يعترفون بأهميته وحضوره بطريقتهم الرافضة، ولعل أبرز الظواهر التي تدل على حضور الأدب الإسلامي تلك الندوات التي تتبناها الجامعات العربية وغير العربية عن هذا الأدب، أو عن بعض جوانبه.

وهذه الإشارات تدعو الأدباء الإسلاميين، وتدعو النقاد ودعاة الأدب للجد في إبراز ملامح هذا الأدب الإنساني، أدب الحياة، ودراسة آثاره المختلفة، بروح إسلامية، أي بروح موضوعية، بعيدة عن تأثير الأمواج والتيارات المختلفة.

ولن يقتصر واجب الدارسين على جانب واحد، ومنحى محدد، بل هناك جوانب ومناحٍ مختلفة، وأولها ـ من وجهة نظري ـ دراسة النتاج الأدبي الإسلامي الأصيل، على ضوء التصور الإسلامي، والنقد الإسلامي، لإبراز ملامح هذا الأدب وتقديمه للقراء من خلال الصورة النقدية الجادة.

وفي هذه الخطوة بالذات يتعرف الدارسون إلى ملامح وخصائص، ما كانت لتُعرف لولا هذه الدراسة.

ولكن دراسة النتاج الأدبي الإسلامي الأصيل، تحتاج إلى توافر شرطين أساسيين؛ للدراسة، وللدارس.

الشرط الأول: أن يكون الدارس على فهم صحيح لإسلامه، وللتصور الإسلامي لتتوافر للدراسة صفة (الإسلامية)، وحتى لا تكون الدراسة طلاء خارجياً لمضامين أخذت من هنا وهناك.

وتحقق هذا الشرط أمر يحتاج إلى دراسة وجهد، يحتاج إلى تجرد وإخلاص، ويحتاج إلى استعداد نفسي وفكري لخلع الكثير الكثير من الأردية المسمومة التي أرتديناها باسم الأدب، والفن، والحضارة، والمدنية والحداثة، والتطور، وملاءمة العصر.

وتحقق هذا الشرط لا يتأتّى من القراءة عن الإسلام، وما يعطيه من مكاسب علمية وحضارية ومادية للإنسان. ولا يتأتى من الاطلاع عما كتبه المعجبون، أو كثير من حاملي الدعوة الذين فتنتهم مصطلحات العصر، ودفعتهم العاطفة للبحث عن طريق في السياسة، أو في غيرها للوصول باسم الإسلام إلى تحقيق غايات محببة إلى النفس والتخلص من عناء المجاهدة عبر طريق الدعوة الطويل...

تحقق هذا الشرط لا يكون إلا من فهم الإسلام، حقيقة الإسلام كما أنزل الله، من كتابه الكريم، وسنة نبيه العظيم، من التفقه في هذا الدين لمعرفة حدوده وأحكامه، حلاله وحرامه، ولمعرفة كثير كثير من الجوانب التي هي من أساسيات العقيدة وقد غابت عن المسلمين في زحام الأفكار والثقافات والصور المتراكبة، وكذلك من دراسة سيرة نبيه ﷺ، سيرة الدعوة وتاريخها الطويل من مصادرها الصحيحة الأصيلة.

ولو نظرنا إلى الواقع لرأينا أن الأدباء الإسلاميين - في غالبيتهم - مقصرون في هذا، وكثير كثير منهم يجهل مبادىء دينه التي افترضها الله عليه، ويجهل كثيراً من الحدود التي لا حجة لمسلم في جهلها أمام الله(١).

الشرط الثاني: أن يكون الدارس على دراية كافية بشروط الفن الذي يكتب عنه، واللون الأدبي الذي يدرسه، وعلى معرفة بأساسياته وشروطه. فضلاً عن توافر الموهبة، والإحساس الأدبي الذي يساعده على فهم النصوص، وتذوق ما فيها من لمحات الجمال، وإبداعات الصور، و. . . و. . .

ولعل كثيراً من الدارسين يهتمون بالشرط الثاني أكثر من اهتمامهم بالشرط الأول، فتتوافر لهم صفة (الأدب) دون أن تكون لهذا الأدب صبغته الإسلامية كما ينبغي أن تكون.

ولا يكفي أبداً أن يكون الدارس، أو الناقد، أو الأديب ذا موهبة مبدعة، وذا خبرة واسعة في فنون الأدب، ليكتب عن الأدب الإسلامي، ويحدد له أطره، ويضع له موازينه. . . وإذا كان الشرط الثاني ضرورياً ولازماً، لأنه شرط فني، فإن محاذير كثيرة ينبغي أن يلتفت إليها الأديب المسلم، ومنها تلك البيئة الأدبية، والمسلَّمات النقدية والفنية في مجال الدراسات الأدبية.

إن المناهج التي ينشأ عليها المتخصص ذات روح غربية معادية للإسلام في جوهرها، بعيدة عن منهج الله والتصور الإسلامي في أهدافها ونتائجها، وإن لم تكن كذلك في ظاهرها.

---

(١) ويتبع هذا الشرط دراسة كتاب الله - عز وجل - والعيش معه، حتى يصبح الفكر والعاطفة والذوق والسلوك وفق الإسلام (كان خلقه القرآن) وكذلك لا بد من فهم تاريخنا مصفى مما دخل فيه على ضوء الأساسيات الثابتة.

ومهما كان الدارس واعياً، فإن كثيراً من مؤثرات هذه المناهج تبقى عالقة في نفسه وفكره، وكثيراً من الصور، والأدوات والأحكام تظل نافذة في دراساته، ولذلك تختلط الصور، وتتداخل الأحكام، وتنعدم الأصالة في اختيار الجانب الإسلامي والتصور الإسلامي فيما يكتب ويدرس.

ألا ترى معي أن أذواقنا، ونظراتنا إلى المفاهيم الجمالية قد صيغت على غير النهج الإسلامي، بل هي من المقاييس الغربية التي اختلطت بموروثاتنا التي بقيت دون وعي منا.

وهذه الأمور لا تدرك بالعقل مباشرة، ولا بد لعوامل الإحساس أن تشترك في ذلك.

لنأخذ مثلاً كيف ينظر الغربي إلى الطعام.. وماذا يحبُّ، وكيف ينظر إلى لذة الطعام، وما هي الشروط الضرورية ليصبح مذاق طعامه لذيذاً وجيداً.

لا شك أنه سيداخله كثير وسيؤثر مما حرم الله، وستؤثر عليه في ذلك ما ورثه من آبائه، وما اعتقده من آراء ومعتقدات، وما يتصوره في حياة الإنسان ومصيره.

ولكن المسلم في احتكامه إلى إسلامه، يرفض كثيراً من هذه الأطعمة وإن كانت عناصرها واحدة عند أكثر الشعوب، لأنها تتشكل بطريقة تخالف عقيدته، وتدخل في دائرة الحرام، ولا تأتلف مع ذوقه وموروثاته أيضاً.

وكذلك في الأدب عامة، والأدب الحديث خاصة، فهو نتاج لأجواء غير إسلامية، بل هي أجواء ـ في عمومها ـ تعادي الإسلام وتعمل في طريق غير طريقه.. ولهذا فإن نتائجها لن تكون تلك النتائج التي تتوافق مع المسلم الذي يلتزم بإسلامه، ويصوغ حياته على هدى من الله.

ومن هنا ندرك الخطأ الذي نقع فيه عندما نحاول أن نسلم بكل الصور

والأشكال الحديثة للفنون الأدبية بحجة أن المسلم لا يغلق عليه النوافذ، بل هو جوّاب آفاقٍ يلتقط الحكمة أنّى كانت، ويستفيد من تجارب الآخرين. .

نعم هنا مكمن الخطأ والخطورة، لأن الذين يُسلِّمون بهذا لم يحققوا عناصر الأدب الإسلامي، أو صورة الأديب المسلم الذي نشأ إسلامياً صرفاً في تصوره وعرف دينه من أصوله، وعرف حدوده، وصيغت أخلاقه وسلوكه وأذواقه على مائدة القرآن الكريم، وفي ظل الإسلام، ثم انطلق بعدها ليجوب الآفاق، وفي قلبه النور، وفي روحه الروح الإسلامية الصافية التي تجعله يتذوق الأشياء والألوان والروائح، والمطاعم والفنون تذوقاً إسلامياً صحيحاً، وبدون ذلك لا يستطيع. .

ولديّ من الصور المشوهة، ما يكفي للدلالة على ذلك، مما جعل بعض الإخوة الدارسين ممن نحبهم، ونعرف لهم قدرهم ومواهبهم يزلُّون زلات مريعة، تعد سقطات قاتلة في موازين الأدب الإسلامي، لأنها تخالف أصولاً وبدهيات من العقيدة والفقه بأحكام الحلال والحرام.

هذه المقدمة الطويلة لابد منها قبل التوقف عند بعض الملاحظات التي أبداها أخ كريم على كتابي «في الأدب الإسلامي المعاصر» الذي كان ثمرة تجربة خاصة كنت أخوضها للتعريف بالأدب الإسلامي والأدباء الإسلاميين، وفي النطاق الذي أستطيعه، دون اهتمام بما يقال من منطلق القيم النقدية، والمدارس النقدية، والدارسين (الأكاديميين) الذين التزموا بمنهجية الدراسات الأدبية كما طرحتها المذاهب المختلفة. .

وكان همي في الكتاب: «التعريف بالآثار الأدبية الإسلامية وعرضها وتحديد بعض مميزاتها، دون أن أتعمق في هذه الدراسة لنبش سيئاتها أو تحليل مضامينها»[1].

---

(١) من مقدمة كتاب «في الأدب الإسلامي المعاصر». لقد صدرت كتب تتحدث عن =

وكان لهذه الموضوعات أثرها الطيب والحمد لله، لأنها ابتدأت من أوائل (الستينات) حينما كان الأمر مستهجناً، والأصوات غير هذه الأصوات.

ولقد كان هذا الكتاب ـ فيما أعرف ـ أول كتاب يصدر بهذا الاسم وهذا المضمون، ويتحدث عن الأدب الإسلامي دون تردد ولا وجل[1]، ولذا كنت أشكر الذين يتقدمون ببعض الملاحظات والنصائح أو النقد على هذا الكتاب، وأوضح المنحى الأساسي له، وأعتذر عن الخوض في تفصيلات تتناول الدراسة الأدبية عموماً، التي لم تكن من غايتي في هذا الكتاب.

ولقد تناول الأستاذ محمد عروي هذا الكتاب مرتين، مرة في مجلة الأمة[2]، ومرة أخرى في مجلة المشكاة[3].

وإنني أشكر الأخ الكريم على اهتمامه ونشاطه، وإسهاماته الجادة ومتابعته وحماسته، والتي خبرتها من رسائله المتتابعة التي وصلتني منه، وكتاباته في المجلات، ولكنني أود الإشارة إلى بعض الملاحظات:

١ ـ إنني مع الأخ عروي في عدم تذييل الموضوعات بالتواريخ التي كتبت فيها، ولكنها كانت ـ ولا سيما دراسة الشعراء والقصاص ـ في وقت مبكر قبل عام ١٩٧٥ م وبعضها في أواخر الستينات. لأن كثيراً منها نشر في

= الأدب الإسلامي والفن الإسلامي عامة وكان لها دور الريادة ككتاب الأستاذ محمد قطب ص ٤ ـ ٥٧.

(١) لقد صدرت كتب تتحدث عن الفن الإسلامي، والأدب الإسلامي، وأولها كتاب الأستاذ محمد قطب، ثم كتاب الدكتور نجيب الكيلاني عن المذهبية والأدب الإسلامي.

(٢) مجلة الأمة العدد الأخير (٧٢) وعنوان البحث «قراءة في الذات الأدبية الإسلامية».

(٣) العدد الخامس والسادس للسنة الثانية ـ وعنوان البحث «هوامش على متن الأدب الإسلامي المعاصر».

مجلتي حضارة الإسلام والمجتمع، والقليل منها نشر بعد هذا التاريخ، أو عُدِّل قليلاً لأن كتابته كانت قبل هذا التاريخ.

والأهم من ذلك ـ في رأيي ـ أنه في كل هذه الموضوعات كانت الغاية واضحة، وهي التعريف بالأدب الإسلامي، وبالأدباء الإسلاميين الذين لم يتناول آثارهم أحد من الكتاب[1]، ولذا تبقى مسألة التاريخ مسألة ثانوية ما دمت مؤمناً أن هذا الهدف لا يزال هو الأهم والأجدى في هذه المرحلة، وإلى أمد يصبح فيه الأدب الإسلامي معروفاً في نطاق أبنائه وأعدائه على السواء.

٢ ـ والملاحظة الثانية التي تتناول الفصلين الخامس والسابع فهي صحيحة[2] إلى حد كبير، وربما كان إدراجهما متتابعين أجدى وأنفع مع الإشارة إلى أن الدعوة التي أشار إليها الأخ الكاتب جديرة بالاهتمام، وهي «تتناول التراث بالبحث والتحليل»، ولكن بعض المهتمين في دراسة الأدب الإسلامي سبقوا الدكتور عماد الدين خليل إلى هذه الفكرة التي ينسبها الكاتب إليه، ولقد كان الدكتور عبد الرحمٰن الباشا ـ رحمه الله ـ من أوائل الذين عملوا على إبرازها حقيقة من خلال الأبحاث التي كلَّف بها طلابه، والتي أثمرت بضع مجموعات من الأدب (التراث الأدبي) الإسلامي، وهي على التوالي:

ـ شعر الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.

ـ وشعر الدعوة في العصر الأموي.

---

(١) لعل بعضهم أصبح معروفاً بعد حين ـ وكتبت بعض الدراسات عنه ـ ولكن تجاهل الأدباء الإسلاميين ما زال غرضاً عند الدارسين، وإهمالهم هو السمة المشتركة بين الدارسين جميعاً (الإسلاميين وغيرهم).

(٢) وهما بعنوان (في دراسة التاريخ الأدبي) (والملاحظات على طريق الأدب الإسلامي).

ـ وشعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول.

ـ وشعر الدعوة في العصر العباسي الثاني. .

ـ القصة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين (مجلدات).

فهذه ستة مجلدات تضم نصوصاً من الأدب الإسلامي، وتصلح لأن تكون أساساً لعمل كبير في هذا المجال، وتحتاج إلى التقويم والدراسة للاستفادة من هذه الجهود.

وكذلك سبقت الإشارة إلى هذا الأمر في كتابي هذا وفي غيره من الكتابات التي نشرتها.

٣ ـ وأما الملاحظة الثالثة والتي وقف الكاتب عندها طويلاً وتتناول الفصل السادس[١] من الكتاب، فلا بد من وقفات معها، ومع الأخ الكاتب.

أ ـ لقد استعرض الكاتب في ملاحظاته أفكار الأخ الشاعر حكمت صالح[٢] والتي يبدو أنه يتوافق معها شكلاً ومضموناً، ويبدأ في قضية الشكل في الشعر الإسلامي وضرورة تجديده بكل بصيرة وحذر، وإلى هنا لم أعترض على هذا الأمر، ولكن الذي توقفت عنده في كتابي هو السبيل إلى هذا التجديد، الذي حدده بهذه الصرامة: «إن الانفتاح على العالم والحياة، والاستفادة من المذاهب المعاصرة في الأدب هو السبيل الوحيد الذي يكفل لاتجاهاتنا الجديدة التعبير عن تجاربنا الحياتية المعاصرة».

وإذا كان الانفتاح ضرورياً، فإنه ليس السبيل الوحيد، وإنني مع الأسف من خلال قراءتي لكثير من تجارب الشعراء الإسلاميين والأدباء الإسلاميين (في القصة وغيرها) رأيت خطورة هذه الدعوة، لأنني ما زلت

(١) مسار الأدب الإسلامي ومحاولة التزييف.
(٢) ولا أدري إن كان هذا الاسم حقيقياً أو مستعاراً.

مقتنعاً ـ من الواقع ـ بأن أدباءنا ودارسينا يعرفون الأدب، ويعرفون مدارس الأدب أكثر مما يعرفون الإسلام وما يفترضه عليهم الإسلام كأدباء يكتشفون ويرتادون.

ولعلني أذكر في هذا المجال بعض القصص التي كتبها الدكتور نجيب الكيلاني، ومازالت تطبع، وتمثل جانباً مهماً من أدبه في نظر النقاد مثل «الطريق الطويل» و «رأس الشيطان» وغيرهما وهي في مضامينها، وفي كثير من خصائصها الأسلوبية تمثل ما طرحه نظام الحكم آنذاك، وتبرز فلسفته كطريق لإصلاح المجتمع وتحرير الناس، وهي أيضاً لا تتوافق مع التصور الإسلامي في عمومه وجزئياته.

وكذلك في دراسته التي قدمها لإحدى الندوات الأدبية ثم أصدرها في كتيب باسم «حول المسرح الإسلامي» يبدو التصور مضطرباً لا يستند إلى فهم واضح للتصور الإسلامي، أو التزام أكيد به بقدر ما يستند إلى تسليم بالقواعد العامة للمسرح العالمي كوعاء لما يؤمن به الكاتب من قيم ومبادىء، وترجمة لما يعتنقه من منهج، ومقياس إسلامي لما ينبض في العمل المسرحي من سلوك وأقوال وأفكار وتحليل[1] . . .

والغريب أن الكاتب (الدكتور الكيلاني) يستعرض أسماء كثيرة يدلل بها على وجود المسرح الديني خلال القرن العشرين، ويقصد به هنا طبعاً الإسلامي، ويذكر في هذا السياق (عزيز أباظة، وتوفيق الحكيم، وعبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور، ومحمود تيمور) ومع التحفظ الشديد حول هذه الدراسة فإنني أذكر شيئاً مما قاله عن المرأة وظهورها في المسرح حيث أفتى بأمور لا أظن أحداً ممن يلتزم بشرع الله يوافقه على ذلك فيها، فقال بعد أن ذكر أهمية المرأة، وأنها نصف المجتمع، ثم استنكر أن

---

(١) (مقدمة حول المسرح الإسلامي).

يُستعاض عن شخصية المرأة بالمسرحية برجل يمثل دورها، ورأى أنه يدخل في حكم الحديث (لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)[1]، ولعله أراد أن ينقل القارىء إلى ضرورة ظهور المرأة على المسرح حتى لا يرتكب الرجال هذا الإثم العظيم. . لا سيما وأن «إيجاد مسرح بلا نساء كقاعدة، يجافي المنطق، ويضاد الواقع والتاريخ والفن، ويسم العمل المسرحي بكثير من النقص والقصور، بل والعجز أيضاً»[2] ثم ينتقل إلى مجال الفتوى والاستدلال فيقول:

«والرسول ﷺ تكلم مع النسوة في مواقف معينة تاريخية وكذلك فعل صحابته من بعده ومن ثم فلا حرج في ظهور المرأة على المسرح وتحدثها مع الرجال».

عجباً لهذا المنطق، وهذا المنهج، وهذا الاستدلال وهذه الجرأة، ولا أخال صلاح عبد الصبور، أو أي آخر يهاجم الإسلام سراً وعلانية يأتي بغير هذا المنطق.

ثم يقول «وأراني أتحدث عن أمر حسمتْهُ الوقائع التاريخية بل والأحداث الجارية، والممارسات القائمة. . .» فالأحداث والوقائع هي البديلة عن أحكام الله، وهي التي يُستدل بها علىٰ الأحكام.

ولم يبق في منطق الدكتور نجيب غير أن ينزل الله سبحانه وتعالى ـ حسب هذا المنطق ـ أحكاماً توافق متطلبات المسرح، والسياسة. . . حتى يُستباح ما حُرِّم، ويُحرَّم ما أُحِلَّ.

---

(١) غريب جداً أن يستنتج الكاتب عدم جواز ظهور الرجل بدور المرأة من هذا الحديث، ثم يستبيح ظهور المرأة واختلاطها، وارتكابها المحرمات الواضحة هرباً من هذه الشبهة. . . يا سبحان الله.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤، والأمر الذي أقره منطق العصور الجاهلية والوثنية، والواقع هو الحكم في نظر الكاتب، وهذا أمر مستغرب لأن المسلم لا يحتكم لغير دينه وأحكام شريعته إن وافق ذلك رأي الناس أم لا يوافق.

هذه يا أخي صورة مما يكتب عن الأدب الإسلامي، وباسم الانفتاح وأخذ التجارب و. . . وبأيدي من لا يستطيع إقناع الناس بشيء من أخطائهم، لأنهم أخذوا صفة الإسلامية عبر مشوار طويل، غاب فيه الأدب الإسلامي الأصيل.

وأنا لا ألوم الدكتور الكيلاني[(١)]، فله تجربته، وله أسلوبه وأفكاره التي يخطىء فيها ويصيب، ولكنني أنبه إلى أن الأدب الإسلامي، ينبغي أن يحذر التزييف حتى لا نئد التجربة، ونفسدها في مرحلة مبكرة من مراحلها، كما يحدث للحركات والدعوات الإسلامية المختلفة التي هي موضع رصد ومتابعة من أعداء الإسلام.

وكذلك أشير إلى المجموعة التي كتبها الدكتور عماد الدين خليل بعنوان «جداول الحب واليقين» وتحدث فيها بقطعتين مختلفتين عن محمد ﷺ، وعن (بيتهوفن) فيقول عن موسيقاه:

«وموسيقاك يا بيتهوفن. . . تنصبُّ عليَّ من السماء، موسيقاك كمزامير (داود)، موسيقاك. . تعيد إليَّ التاريخ، تعرضه من جديد حيوياً هادراً دفاقاً. .

ومصدره في الأعالي يا بيتهوفن

يا من كتبت بموسيقاك تاريخ العالم

يا من وضَّحت بموسيقاك معالم الأشياء.

كشفت عن جوهرها، ومزقت عنها الغطاء. . يا بيتهوفن تحدد بموسيقاك أماكن الأشياء، توحي إلينا. . .

---

(١) هذا الخطأ لا يقلل من حسنات الدكتور الكيلاني، وجهوده في مجال الأدب الإسلامي وغيره ونرجو الله أن يثيبه على ذلك.

أنها وضعت في أماكنها بقدر، وأنها تتناغم جميعاً وتسبح بحمد الله. . يا بيتهوفن

يا من كدت أن تقول لا إلٰه إلا الله.

ثم يقول: ومن هذا اللحن الموحد الذي وضعه الله

كنت تقتبس موسيقاك يا بيتهوفن. . .

تفجِّر في قلوبنا جداول الحب واليقين

فنبحث في خضمِّ هذه الغبطة الروحية

عن أماكننا في الكون. . .».

ولا أظننا نحتاج إلى كثير من العناء، لنرى أن بيتهوفن بمنزلة الأنبياء، وأن موسيقاه وحي ورسالة تعيد التاريخ، وتعرضه من جديد، وتوضح معالم الأشياء، وتكشف عن جوهرها، وأن بيتهوفن نطق بموسيقاه بكلمة التوحيد، وأن موسيقاه تحمل رسالة التوحيد، وهي تفجر في قلب سامعها جداول الحب واليقين التي أسمى مجموعته كلها باسمها.

وعلى هذا فإن أمثالي من المساكين الذين لم يدركوا ما أدرك أخونا الدكتور هم خارج حدود هذا التوحيد، أو لا أدري مصيرهم في شرعة بيتهوفن كما يفهمها الشاعر.

ثم يتحدث عن الموسيقى ذاتها فيقول:

موسيقاك يا بيتهوفن كأناشيد سليمان

جداول تنساب من الحب والدهشة واليقين، ونداءات تتفجر في أعماق الكينونة إلى الإنسان.

وموسيقاك. . ضربات عنيفة في عصب الوجود

كنذر الأنبياء والصديقين، كسيوف المجاهدين في سبيل الله تقطف رؤوس الملعونين، وتسوِّي التواءات التاريخ.

وتعيد المنبوذين إلى الصراط. وتفتح الطريق أمام الإنسان والأشياء والأبعاد، فتعود هادئة مطمئنة إلى توافقها العظيم»[(١)].

وعلى هذا فسماع مثل هذه الموسيقى يكفي المسلم مؤونة الدعوة والجهاد والعمل... الخ. ولا حاجة للتعليق على ما ورد بعد أن أصبحت هذه الموسيقى كرسالات الأنبياء والمرسلين وكوقائع المجاهدين الذين يبذلون أرواحهم ودماءهم في سبيل الله، وهي التي تصلح الحياة كلها.

ثم نعود إلى المجموعة حيث كتب بعنوان «العودة إلى رسول الله»[(٢)] ما يلي:

«وأنا أعود إليك في يوم مولدك، وأنا ارتجف يا رسول الله، يهتز قلبي حباً وشوقاً، وتتناغم روحي مع نبضات القلوب العاشقة، والتسبيحات الكونية.. والحزن العميق.. أقطع الطريق إليك من داخل وجداني حيث تذوب الأشكال، ويتلاشى السأم والجفاف وتتدفق في الأعماق جداول الحب واليقين».

فهل جداول الحب واليقين هي من كلمات محمد ﷺ أم من موسيقى بيتهوفن؟

وأرجو أن يقارن القارىء الكريم بين الصورتين الكاملتين لهاتين القطعتين، ولعله يدرك أكثر مما أدركت ويرى أن صورة الموسيقى أعمق وأبلغ في تصور الشاعر[(٣)].

---

(١) معذرة إذا خرجت في كتابة المقاطع عن النسق الذي اختاره الأخ الدكتور عماد في المجموعة المذكورة.

(٢) جداول الحب واليقين ص٤٥.

(٣) لا شك أبداً بأن الدكتور عماد الدين خليل في طليعة الكتاب الإسلاميين المعاصرين المخلصين. ولقد وعدني بعدم إعادة طبع المجموعة، ولعله فعل ذلك وهو من =

إن هذين المثالين يكشفان خطورة العجلة والخوض في غمار التجربة بلا دليل ولا رشاد، لأن مثل هذه السقطات لا تجوز لرجل عادي، فضلاً عن رجل له مكانته وريادته وتأثيره. فنحن ما زلنا متأثريـن بما في مجتمعاتنا من قيم وأفكار وأذواق وأساليب، وننطق بلسانها كثيراً دون أن ندري. ولذا لا بد من تحقيق الشرط الضروري والأساسي لخوض هذه التجربة ليكون أدبنا ونقدنا أدباً إسلامياً ونقداً إسلامياً.

ولعل الأخ عروي يخشى على تجربة الشعر الحديث، ويتهمني بأنني أضع قواعد الشعر القديم مقياساً.

وبعيداً عن مناقشة هذه الفكرة أقول، إنه لا بد من التريث قبل أن نحمل القضية وكأنها قضيتنا، وكما طرحها حكمت صالح أيضاً.

ولو أننا انطلقنا من تكوين الذوق الأدبي من كتاب ربنا ومن تراثنا العظيم، لكان لنا رأي آخر، ولما كانت هذه الاندفاعة وراء التحديث قبل أن نتبين القيم الحقيقية التي تحكم سلوكنا وأذواقنا وأدبنا، ولكان تحديثنا أجدى وأرشد. ولما كانت هذه الملاحظة التي أشار إليها الكاتب في الهامش من ضرورة طرح لفظة «الجاهلية»، واستبدالها بمصطلح آخر خوفاً على (الغير) وعلى المشاعر، ولا يجد حرجاً في المصطلحات الجديدة التي ترمز إلى وثنيات، وفلسفات كافرة مادامت تخدم الحداثة والانفتاح، مع طرح مصطلح قرآني أصيل في هذا الطريق.

وليس غريباً أن يكون اهتمامي بالمضمون قبل الشكل، وهذا ما نحتاج إليه، مادام العمل الأدبي قد تجاوز حد المقبول ضمن العرف الأدبي، أو

= الذين يصغون للنصح، ويحسنون الاستماع للنقد، ويستفيد مما يسمعون ويؤوبون للحق وهذا ما لمسته وعرفته من أخلاق الرجل، وليس استدلالي على الفكرة من تجربته إلا ليعرف القارىء أن مسار الأدب الإسلامي يحتاج إلى تأصيل واع لا يقع في الجمود ولكنه لا يسقط باسم الحداثة والانفتاح.

الشروط الفنية المعروفة لهذا الفن أو ذاك، ولا يمنع هذا من النظر في الأمور الفنية الأخرى، ولكن ليس من منظوز النقد المعاصر الذي طرح أموراً ليست سليمة، لأنه أراد محاربة الآداب القديمة عموماً والأدب الإسلامي بصورة خاصة. فوضع من القواعد والشروط ما يجعله يرفض كل أدب يمتُّ إلى الإسلام أو القيم الربانية بصلة. إنه يضع القواعد التي تمهد السبيل أمام الفنون لمحاربة الله عز وجل. ولعل نظرة الكثيرين إلى الأدب أبعد من الحجم الحقيقي الذي ينبغي أن نعطيه في ضوء الحياة الإسلامية المتكاملة، لأن الإسلام ـ دين الله ـ ومنهج الحياة البشرية كلها، جاء ليرتب الحياة ويربي المسلم على ممارسة الحياة السوية، ولتكوين الأمة الإسلامية، الأمة الوسط، فلا يتضخم جانب هنا على حساب جانب هناك، ولا يشذ هذا لينقص جانب هناك.

وكثير من الذين يكتبون عن الأدب يعطونه حجماً أكبر، وقد يحلونه محل الدين ذاته وسط إعجاب وتضخيم.. ولكن المسلم يرى أن الأدب وسيلة من الوسائل، وهناك ما هو أجدى منه وأهم، ومهما بلغ الشاعر أو الكاتب فلن يرقى إلى الكلمة الفصل، وبالقدر الذي يبلغه الأديب في العيش الحقيقي، (في مجال القراءة والإدراك، ومجال السلوك والتطبيق) في ظلال القرآن يصحح نظرته إلى الأدب، وفهمه للحياة، ولحجم الأدب فيها.

والقضية عند الأستاذ عروي أخذت مساراً آخر غير المسار الذي أردته في هذا الفصل، والذي أشرت إليه في مقدمة هذا الموضوع، وإذا كنت قد قبلت أمراً في بعض الدواوين، وانتقدته عند الشاعر حكمت صالح، فليس هذا إلا نتيجة تأثرنا بما يكتب، أو سهونا عما يكتب أحياناً.

وبعد كل هذا فأنا ما زلت ـ أيها الأخ العزيز ـ مصراً على أن الأدب الإسلامي الحقيقي يخط طريقته بصورته المتميزة، وهو الذي يصنع الأداة ويختار الأسلوب، ويصطنع الوسيلة، ويضع الموازين، سواء اتفقت مع ما

تعارف عليه هؤلاء أو أولئك، وسواء كان ذلك من خصائص القديم أو مميزات الحديث.

الأدب الإسلامي لا يُكتب ولا يُقوَّم بموازين وقيم نتجت عبر طريق طويل من البعد عن الله، مهما كانت نصاعتها وبريقها، ولسنا في حاجة إلى أن نقف في مصاف أولئك الذين نفخت فيهم الشياطين صور العظمة والتقدم والحداثة، وهو ليس في ميزان الله شيئاً، والمسلم لا يثق إلا بميزان الله العلي القدير...

وبقدر ما آلمنا أن يتضاءل دور المسلمين في شتى أمور الحياة في هذا الزمن، بقدر ما يدفعنا ذلك إلى الاجتهاد والإخلاص للنهوض، وبناء المجتمع الإسلامي الصحيح الذي تكون بعض نتائجه ذلك الأدب الرفيع، والعلم المتقدم. وإنني أشكر الأخ عروي على هذه الملاحظات التي دفعتني إلى هذه الإيضاحات، وإنني على يقين بأننا على طريق واضح، وبمثل هذه وتلك تضاء الطريق.

مَسَار الأدَب الإسلَامي وَمحاوَلات التزييف

في طريق البحث عن مسار الأدب الإِسلامي المعاصر يسهم كثير من الأدباء الإسلاميين: شعراً ونثراً وبحثاً، وكلها تفيد في تحديد المعالم ورسم الطريق، وكلها اجتهادات نافعة تجعل المدى أمام الباحث واسعاً والأفق رحباً، والمأمول من هذا كله أن ينتهي أدباء الإِسلام في هذا العصر إلى صورة إيجابية محددة، تعين على تأصيل هذا الأدب وتحديد مساره الصحيح، ونفض الغبار عن تراثه، ودفع الهمم للمضي في الطريق الصاعد لبناء الإِنسان المسلم، والمجتمع الإِنساني المسلم.

وكلما ظهر في الساحة نتاج جديد في هذا المسار، يزداد الأمل، وتقوى الثقة، ولا سيما إذا كان هذا النتاج بحثاً رصيناً يطرح عدداً من المفاهيم، ويحدد بعض الأفكار من خلال تجربة حية يعيشها صاحبها، ودراسة تطبيقية تمده بالنتائج والآراء.

وليس مهماً أن تتطابق الآراء، وتتلاقى المفاهيم دوماً، لأن اختلافها أحياناً يزيد في مساحة الأدب الإِسلامي ذاته، وتعددها يعمق منه ويبعد من مراميه، وما دامت الغاية واحدة، والمنطلق واحداً، ضمن التصور الإِسلامي والشريعة الإِسلامية، فلا بد أن تصل الآراء والمفاهيم إلى صورة إيجابية واحدة ولو بعد حين، لكنها حين تصل إلى هذه الصورة تكون قد اكتسبت صلابة أكبر، وازدادت نضوجاً وعمقاً، وتسلحت بالوعي والتجربة، لتصمد أمام المعادين لها، والكائدين للعقيدة بشكل عام.

وأود أن أستعرض بحثاً جاداً من هذه الأبحاث، نشر عام ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م في كتيب صغير تحت اسم «نحو آفاق شعر إسلامي معاصر» للأستاذ الشاعر حكمت صالح، لأقف على بعض النقاط المهمة التي وردت فيه.

لقد كان البحث محاولة جادة لإِعطاء صورة شاملة للأدب الإِسلامي المعاصر، بصورة عامة، والشعر الإِسلامي بصورة خاصة، ولذلك نرى الكاتب يصف واقع الأدب الإِسلامي الذي بدأ «يشق طريقه القيادي في مسارات الطلائع الإِسلامية التي تهدف إلى استقاء الزخم وطاقات الدفع إلى الأمام من منابعها الأصيلة الصافية»[١].

ولا يغفل الكاتب في وصفه لواقع الأدب الإِسلامي عامل الزمن للهضم والتمثيل ثم الترجمة بصدق عن معاناة التجارب.

وكذلك يؤكد على عالمية الأدب الإِسلامي، ويرى أن المحاولات الأدبية المعاصرة بحاجة إلى النقد الموضوعي الجاد بعيداً عن المحاباة وبعيداً عن التجريح لتأخذ طريقها إلى الحياة.

* * *

ثم ينتقل للحديث عن الشعر الإِسلامي المعاصر، فيرى أن يكون «أصيلاً بعيداً عن التكلف والتصنع، اللذين يجهضان التجارب وهي بعد في رحم القريحة»[٢].

وأما من حيث الشكل فيرى أنه بحاجة إلى «تراثنا القديم» وكذلك «نحن بحاجة إلى التجديد، ومن ثم العمل ـ بكل بصيرة وحذر ـ على صهرهما في بوتقة واحدة لإِنتاج أعمال شعرية تخرج أدبنا العربي من دوائر السقوط ومحيطات التقوقع»[٣].

---

(١) نحو آفاق شعر إسلامي ص ٧.
(٢) المصدر السابق ص ٨.
(٣) المصدر السابق ص ٩.

ولكنه يستطرد فيقول:

«إن الانفتاح على العالم والحياة، والاستفادة من المذاهب المعاصرة في الأدب العالمي، هو السبيل الوحيد الذي يكفل لاتجاهاتنا الجديدة التعبير عن تجاربنا الحياتية المعاصرة».

«ولا مانع لأدبنا الإِسلامي المعاصر من الاستفادة من الرمزية، وحتى السريالية في قوالبها وطريقة طرحها للمضامين، طالما كانت مجرد محاولات وتجارب، وطالما كان الأديب ملتزماً الخطوط العامة لمسار الشخصية الإِسلامية وأخلاقيتها»[1].

وينبغي أن نتوقف عند هذه النقطة بالذات، لأنها تشير إلى قضية مهمة حساسة في تشكيل التيار الأدبي الإِسلامي.

ويبدو لي أن في هذه العبارة قضيتين متداخلتين:

القضية الأولى: هي الانفتاح على العالم والحياة، والاستفادة من المذاهب المعاصرة في الأدب العالمي.

والقضية الثانية: تحديد الاتجاه للأدب الإِسلامي. بانتهاج سبيل المذاهب المعاصرة، في التعبير عن تجاربنا الحياتية المعاصرة، والأخذ من كل المذاهب الجديدة مع المحافظة على الخطوط العامة لمسار الشخصية الإِسلامية وأخلاقيتها.

وهاتان القضيتان مختلفتان ولو بدا في الظاهر أنهما متفقتان. فالانفتاح على العالم والحياة أمر ضروري وحيوي للأدب والعلم بشكل عام، بل إن المسلم بفطرته إنسان رحب الأمداء، واسع الخطا، بعيد النظر، جوّاب في ملكوت الأرض والسماء، متطلع إلى ما هو أبعد من الحياة الدنيا.

---

(١) المصدر نفسه ص ٩.

لكن هذا الانفتاح يسير في طريق إسلامي، وينظر من خلال التصور الإسلامي، ويتحدد بحدود الشريعة الإسلامية، وهي حدود لا تقيد من حرية الإنسان المسلم، ولا تُقيد من طموحه، ولا تحول دون إبداعه.

وعلى ضوء هذه الحقيقة ننظر في أمر الاستفادة من المذاهب المعاصرة وتحديد الاتجاه للأدب الإسلامي في هذا المسار.

فالاستفادة من المذاهب المعاصرة عنوان كبير غير محدد، وهو يغري القارىء ولكنه يضعه في مهب الريح دون أن يدري.

ونحن بحاجة إلى النظر في هذه المذاهب التي لا يمانع الكاتب من الاستفادة منها.

وهل تصلح هذه المذاهب لكي يأخذ منها الأديب المسلم أو يسير على منوالها؟ بل هل من الخير أن نسلِّم بهذه المذاهب ونجعلها نقطة بحث وانطلاق؟ ومن المعروف أن المذاهب الأدبية الحديثة تعبير عن تصورات محددة لفئة من الناس الغربيين، ونتيجة لظروف خاصة نتجت عن صراعات وقلق وتطورات في أوروبا، وكانت نتيجة طبيعية لحالة القلق التي عاشتها تلك المجتمعات بعيدة عن الله عز وجل، بلا أصول ولا جذور وبلا صلات ولا وشائج، لذلك كان الإنسان الأديب يحس بنيران هذه الحياة تتأجج في قلبه فيشقى بحسه وعواطفه ووجدانه،وتتأجج في دماغه فيتخبط بالتفكير، ويصطرع مع الحياة بعنف، ونشأت هذه المذاهب تعبيراً عن حالات مختلفة عاشتها المجتمعات الأوروبية بلا ظل يدفع عنها لظى الشقاء، وبلا حنو يؤنسها من هذه الوحشة.

بل إن بعضها تعبير عن عقائد وثنية، وأساطير ومجتمعات تعادي كل شيء رباني، أو أخلاقي، وتعلي صور الانحطاط الأخلاقي والرذيلة، والسقوط بوجه عام.

كان الإِنسان يهرب من النظام الذي يسود، ويهرب من العقيدة التي يدين بها المجتمع، ويهرب من البيئة التي تكبله وتحرجه، ويهرب من نفسه الشقيَّة القلقة.

لذلك جاءت هذه المذاهب، وكان وراءها كثير من الخبثاء الذين يريدون أن يجروا الإِنسانية إلى التمزق والهاوية لكي يتحكموا بمصيرها، وكانت تحمل طابع المجتمعات التي انبثقت عنها، وهي خلاصة للتصورات التي تحكمت في هذه المجتمعات، وصورة من الحياة التي عاشها الناس هناك.

لجؤوا إلى الرموز التي تبعدهم عن الواقع، أو تصور مأساتهم الكئيبة، وهربوا إلى الخيال، والطبيعة، والمجهول، والجنون ليتخلصوا مما في نفوسهم من تمزق وقلق، أو كبت أو ظلمة قاتلة.

إن من يطَّلع على حياة أولئك الذين اشتهروا كرواد لهذه المذاهب، يرى صورة البؤس والانهيار الذي وصل إليه الإِنسان الأوروبي، والشقاء الذي يعيش فيه في ظل العقائد المنحرفة، والجاهلية الحديثة التي جرَّت الحروب والخراب وضياع إنسانية الإِنسان. لقد تركت هذه الحياة المادية آثاراً عميقة لأظفارها وأنيابها في أرواح هؤلاء وسلوكهم وأخلاقهم، فبدت غاية في الضياع والصراع والشذوذ، حتى ليحار المرء وهو يبحث عن بقايا الإِنسانية عندهم.

نعم، هذا الذي أحدثته هذه المدنية في العالم، ولا سيما في الحياة الأوروبية المعاصرة، حتى بتنا نسمع صراخهم وهم يستغيثون على ألسنة القلة التي حاولت أن تفلت من الحصار.

فكيف ـ بعد هذا ـ نترك لأدبنا العنان ليأخذ من هذه المذاهب ويقتبس، ويسير على نهجها.

إنها ولا شك تحمل سمات تلك المجتمعات في أسلوبها ومضمونها لأنها تعبر عن التصور السائد فيها، والروح التي تسري في بيئاتها وهي تعبر كذلك عن تلك الفلسفات التي آمنت بها هذه المجتمعات.

ولا يمكن أن تلائم هذه المذاهب حياة المجتمعات الإِسلامية مهما بدت مظاهر هذه الحياة قريبة من مظاهر الحياة الأوروبية، لأن الروح التي تسري في أعماق الإِنسان المسلم ـ أياً كان وضعه ـ تختلف عن الروح التي تسري في أعماق الأوروبي.

وقبل أن نطلق هذه الدعوة للاستفادة أو الأخذ من المذاهب الأدبية، علينا أن نتبين ما يكمن وراء تلك المذاهب، من إرث فكري وعقدي، ومن مظاهر سلوكية وحياتية، ومن غايات ظاهرة وخفية.

ولا يخفى على أحد أن أعداء الإِسلام من الصليبيين واليهود والماركسيين يعملون جاهدين لنقل معتقداتهم، وسلوكهم وطبائعهم إلى ديار المسلمين.

وهم يعلمون أن هذا الأمر دونه صعاب ومقاومة نفسية وفكرية ومادية، ولذلك يلجؤون إلى أساليب خبيثة ماكرة. إنهم يدفعون بحصان طروادة إلى هذه البلاد لكي يبدؤوا الغزو دون مقاومة. ومن ثم يهيمنون على الحياة الإِسلامية ويحولونها كما يريدون.

ولو أنهم واجهوا المسلمين بعقائدهم وأفكارهم، وأعمالهم بشكل سافر لصعب عليهم اقتحام الحصون الإِسلامية، بل ربما يدفعون بالمسلمين إلى اليقظة والدفاع عن عقيدتهم والتمسك بها.

ولهذا يعمدون إلى أخبث الوسائل، التي تدغدغ العواطف، وتغازل الأفكار، وتنيم الأرواح والهمم، حتى إذا سرى الخدر إلى القلوب والعقول دخلوا مستعمرين ومحتلِّين.

والأدب وسيلتهم الخبيثة، يستغلونه باسم الأدب الإِنساني الذي يعبر عن مشاعر الإِنسان، وعن بؤسه، وتطلعاته. ويستغلونه باسم الابتكار، والإبداع، والفن، حتى إذا ما رأوا تقبُّل الناس له راحوا يدفعونهم لتبنِّيه عن طريق أولئك الأتباع من الصعاليك الذين تربَّوا في أحضانهم، وينفخون في مناخرهم حتى يجعلوا منهم طبولاً تجمع حولها المتفرجين. هكذا رأينا لكل مذهب جديد، ولكل دعوة جديدة أناساً وأتباعاً مُسْتَعْبَدين، يصطنعهم أصحاب تلك المذاهب، ويرفعون من قدرهم بوسائلهم الخاصة، فيسخرون الأقلام لتكتب عن مواهبهم وابتكاراتهم ومميزاتهم، ويذيعون البرامج التي تنشر أدبهم حتى ليظن السامع والقارىء أنهم حقاً أصحاب مواهب وابتكارات فذة، بينما الحقيقة أنهم نقلوا تلك الآثار والمذاهب والآداب الغربية إلى لغة المسلمين لتروج باسمهم، أملاً في أن يقبلها الناس بعد أن يروا من بني جلدتهم من يذيعها ويسير في طريقها.

الترجمة أولاً، ثم التبني وسط أجهزة كثيرة للدعاية والطباعة، ثم الدعاية والتطبيل لأولئك المجددين، الذين جاؤوا بما لم يأتِ به الأوائل.

وتحمل لهم دور النشر المخصصة لذلك هذه الكتب، تنشرها، وتروِّجها وتحيطها بإطار من الإِغراء والخداع.

هذه وسيلة من الوسائل، فكيف ندعو إلى الأخذ من هذه المذاهب قبل أن نعود إلى دراسة الواقع المعاصر لأدبنا، فنقوِّم ما فيه بالميزان الصحيح، ومن خلال التصور الخالد، التصور الإِسلامي، لنرى الحقائق بالعين المجردة، دون تهويل أو تزييف. يقول الأستاذ مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ:

«إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها»[1].

(١) الظاهرة القرآنية.

ويضرب مثلاً على أعمالهم، وعمق تأثيرهم، وطريقة بثهم للأفكار والآراء التي يريدون إشاعتها بما قام به المستشرق مارجليوث وتلميذه طه حسين، وكيف أصبحت أفكار هذا اليهودي الخبيث على يد تلميذه الوفي طه حسين قضية الأدب العربي، ثم طبعت الدراسات الأدبية بطابعه الخاص.

ويعقب الأستاذ الكبير محمود شاكر على الدعوات الحديثة في الشعر باسم «الأدب الحر» وغير ذلك من المسميات قائلاً:

«من أخطر النتائج التي يهدف إليها ما يسمى بالأدب الحر، أنه يريد إفساد الذوق الأدبي عند الناس «من العرب والمسلمين» وتكوين أذواق جديدة في الحياة، هذه الأذواق تختلف تماماً عن أذواق الناس الذين عاشوا آلاف السنين في هذه المنطقة، وتكون قريبة جداً من أذواق الغربيين، أو خليطاً عجيباً ليس له هوية، ولا يستطيع صاحبها أن يحسَّ بطعم يأنس به ويرتاح إليه.

وإذا ابتعدت هذه الأذواق عن تراثها أصبح ذلك التراث عندها ممجوجاً، لا تألفه ولا يألفها، لا تحبه لأنها تجد فيه شيئاً لم تعرفه، وطعماً لم تتذوقه، وأكثر ما يهدفون إليه أن يكون كتاب الله عز وجل أول شيء يهجره هؤلاء الأبناء، ويرفضون التسليم بأنه الكتاب المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا سيما وأنهم يفتقدون تلك الميزة الأصيلة الفطرية التي استطاع أجدادنا بواسطتها ـ رغم طغيانهم وعنادهم ـ أن يقولوا «ليس هذا بشعر ولا سحر. . . إنه كلام آخر»[1].

ولعل المذاهب الحديثة التي حملها الماركسيون والمستعربون، وتلامذة المستشرقين، والمارقين من الإسلام الناقمين على كل فضيلة، لعل هذه المذاهب تهدف من جملة ما تهدف إلى تغيير دلالات الألفاظ الحقيقية

(١) انظر ص ١٣ من مقدمة الظاهرة القرآنية.

والمجازية التي حملتها منذ مئات السنين، ولا سيما ما كان له دلالات إسلامية.

وهذه الألفاظ بدلالاتها التي عُرفت بها تؤثر في تكوين الفكر الإِسلامي لأنها وسيلة لفهم كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله ﷺ، إضافة لتأثيرها في فهم تراثنا الأدبي والفكري والحديث.

وإن وراء الدعوة إلى إعادة تركيب الجملة، وإعطاء الألفاظ دلالات جديدة، ما وراءها من إحداث الهوة السحيقة بين الأجيال القادمة التي تلقن هذه الأفكار والدلالات الحديثة وبين كتاب الله عز وجل وتراثنا كله.

إنهم باسم التطور، والثورية، والحداثة يريدون إفساد التركيب اللغوي، وإفساد الذوق العربي، وإشاعة الفوضى في اللغة والحياة؛ ليأتي الجيل الذي لا يستطيع أن يفهم كتاب الله العزيز إذا أراد أن يقرأ فيه، فضلاً عن إبعاده عنه إن استطاعوا، فكيف نقبل هذه الدعوات للأخذ من هنا وهناك.

إنني لست ضد التجديد، والتطوير المنضبط، ولكني ضد هذه الفوضى المقصودة التي يقف وراءها صليبيون ويهود، ومن شايعهم.

والتجديد النافع هو الذي ينبثق من الأصالة، ينبثق من الدراسة الموضوعية لأدبنا، وحياتنا، ويعبر عن الروح الأصيلة للأمة الإِسلامية والعربية.

وعندما نلجأ إلى هذه الدراسة نصل إلى ركائز للتجديد والتطوير، قد تتلاقى وتتفق في نقاط مع هذه المدرسة، أو تلك، ومع هذا المذهب أو ذاك، ولكنها في توافقها أو اختلافها، تقوم على أسس موضوعية مستمدة من هذه اللغة، وهذا التراث، إنها تنطلق من منطلقات هذه الأمة في تصورها للكون والحياة، وتحمل تطلعاتها على هدي منهجها الرباني الأصيل.

وهي في غايتها تلك لا تنفصل أبداً عن كتاب الله، ولا تجافي شرع الله، بل تظل تخطو وتعيش في ظلاله، تأخذ منه قبسات وتستنير به في دربها الطويل، لأن ظلاله وأفياءه خالدة، ولأن أبعاده وآماده واسعة، ولأن عطاءه وكنوزه كثيرة، إنه كلام رب العالمين وكفى.

* * *

وحينما يحاول الكاتب تحديد الخطوط العامة لمسار شعرنا الجديد، يعود إلى تراثنا الأدبي كله فيصفه بالقصور مرة واحدة، وبكلمة قاطعة فيقول: «إننا إذا أردنا أن نستعرض الشعر الإِسلامي لنعطي صورة تاريخية سريعة عنه في الأدب العربي، فإن حسان وكعب بن زهير، وابن رواحة، ولبيد، والنابغة الجعدي، والحطيئة، ناءت أكتاف قوافيهم عن حمل أعباء التعبير عن ثورة الإِسلام الجذرية[1]، فلم يستطيعوا استيعاب كل معطيات أبعاد الدين الجديد[2]، لذلك قيل ما قيل عن الشعر في فترة صدر الإِسلام، وعللوا ذلك بموقف الإِسلام من الشعر، وقد ظلموا الإِسلام ـ ومن حيث لا يشعرون ـ بإناطة تعثر خطا الشعر به... ونحن نرى السبب يكمن في تشبث المخضرمين بالصور الشعرية الجاهلية والأسلوب القديم... ونخرج من ذلك بنتيجة خطيرة: هي أن الإِسلام باعتباره **ثورة عظيمة وانقلاباً جذرياً**[1]، إنما يحتاج إلى شكل جديد، يستطيع مواكبة **انفلاتاته** من قيود التخلف والجمود. ذلك أن القصائد الجاهلية إنما كانت تعيد نفسها على ألسنة

---

(١) إن هذه المصطلحات تشي بالنظرة التي ينطلق منها البحث، فالإسلام ليس ثورة، إنه شريعة من الله، ودين رب العالمين، أتى لخير الإنسان فأقرّ الصالح، وحارب الفاسد، أما الثورة فهي تنفيس للحقد المدفون، وتغيير لكل شيء، الصالح والطالح، ولا يجوز لنا أن نعدل عن مصطلحاتنا الإسلامية إلى مصطلحات حديثة، تحمل تصورات المكر الإلحادي الحديث.

(٢) الغريب أنه يطلق هذا الحكم على صحابة، فإذا كان الصحابة هكذا فما بالك بغيرهم. أليس في مثل هذا الحكم خلل خطير؟

الشعراء شكلاً ومضموناً، حيث كانوا متزمتين لبناء القصيدة القديمة فنياً، فلم يقولوا إلا معاراً أو معاداً من كلامهم مكروراً. . . ولما كانت الأشكال الشعرية المعاصرة ثورة على القالب القديم ومحتواه، فإن هذه الأخيرة يحتمل أن تعبر عن روح ثورة الإِسلام المتجددة عبر الزمن، إن نحن نقينا طريقها من الشوائب التي تكلست عليها».

«إن المتتبع لحركة الشعر الإِسلامي في العصر الأموي يقف على بعض النماذج، من التي شحنت قوافيها **بالتمرد، حيناً، وبالرفض والثورة** أحياناً أخرى، على أن الميول المذهبية، والعصبية لفئة مسلمة معينة دون غيرها، يجعلنا نتحفظ في قبولها كنماذج إسلامية لشمولية الإِسلام الإِنسانية. . .».

«إن في شعر الفتوح الإِسلامية مجموعة أغلبها تنحصر في مقطوعات قصيرة يمكن أن نعدها أشعاراً إسلامية يتوفر فيها كثير من مواصفات العمق والرفض الإِسلاميين».

«وإذا عدنا إلى الشعر العربي في العصر العباسي فإننا نجد بعض القصائد الجادة تتوفر فيها هذه النزعة الإِسلامية، كما هو الحال في بعض قصائد أبي تمام. . .».

«وإذا كانت قصائد أبي تمام المعنية ثورة في مضامينها السياسية بخاصة، فإن بعض قصائد المعري تمثل أبعاد الثورة الفكرية في الإِسلام لولا شططه في شطحاته الميتافيزيقية».

«أما شعر المتصوفة في الإِسلام فأغلبه لا يمثل روح الإِسلام الثائر. . .».

«أما شعراؤنا العرب فتظهر ملامح من روح الإسلام في إنتاج بعض شعراء مدرسة أبولو و (مدرسة النجف)»[1].

---

(١) المصدر السابق من ص ١١ ـ ١٦. واخترنا الفقرات التي تحدد الفكرة.

إن كاتبنا الفاضل أثار عدة قضايا، وأطلق مجموعة من الأحكام، وحدد عدداً من المصطلحات والمفاهيم فيما يخص أدبنا الإسلامي في القديم والحديث من خلال سطور قليلة، وهذه الأحكام والقضايا مهمة جداً في تجديد المسار المأمول للأدب الإسلامي الحديث، ولا بد من التوقف عند هذه القضايا التي أثارها الكاتب في هذه الأسطر.

* * *

إن الكاتب أشار في أول عبارته إلى عجز شعراء الإسلام عن حمل أعباء التعبير عن ثورة الإسلام الجذرية، وعدم استطاعتهم استيعاب كل معطيات أبعاد الدين الجديد.

يقول هذا عن شعراء من الصحابة، شهد لهم رسول الله ﷺ بالفضل والتقى، شهد لهم بما يكذب هذا الكلام.

وفي هذه العبارة عدة أمور:

أولها: الحكم على الشعر الإسلامي في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام بالعجز.

والثاني: وصف الإسلام بالثورة، والحكم عليه من خلال هذا المفهوم.

أما الأمر الأول فإن الرد عليه بسيط، لأن هؤلاء الشعراء لم يكن من مهمتهم أن يعبروا عن كل الجوانب التي غيرتها الدعوة على مستوى الفرد ومستوى المجتمع، إنهم شعراء عاشوا في الجاهلية، وحملوا قيم الجاهلية: أسلوباً ومضموناً، فلما جاء الإسلام، آمنوا بالله ورسوله، وانخرطوا مع المسلمين في حمل الدعوة وكانت لهم مسؤولية محددة.

كانت الدعوة آنذاك تبني مجتمعاً جديداً، والوحي يتنزل آيات بيِّنات حسب الأحداث، ووفق سنة الله في ذلك، ولم يكن أحد من المسلمين

يستطيع في تلك اللحظات أن يستوعب كل التفصيلات الدقيقة للدين الجديـد، وليس مطلوباً من الشعراء ذلك، ولكن يخطىء من يقيس شعراء الإِسلام بشعراء المناهج الوضعية. إنهم مثلوا الإسلام أصدق تمثيل، وقاموا بمسؤوليتهم خير قيام، ولا يجوز أن نخضع شعرهم بآرائنا الثورية المشحونة بافتراءات الأعداء.

إنهم فهموا أمر العقيدة فهماً واعياً وواضحاً، والتزموا بأمر الإِسلام التزاماً كاملاً، وقاموا ينافحون عنه بكل طاقاتهم، وهذا الذي يبدو في أشعارهم التي تركوها لنا، إذ كانت المرحلة تقتضي الرد على الكائدين الذين رموا رسول الله والمسلمين بسيّء أقوالهم، فرد عليهم حسان، وكعب، وابن رواحة وغيرهم. فضلاً عن تبيان فضائل هذا الدين، وأثره في إنقاذ الناس من الجاهلية والشرك.

كانت هناك غزوات وحروب، وكانت أحداث تترى وتتلاحق، وكان الشعر يواكب هذه الأحداث.

إن الجهاد العملي، وحمل أعباء الدعوة وفهم الإِسلام ونقله للآخرين كان يشغل المسلمين جميعاً، ولم يكن هناك مجال للشعر والقول. أما ما تركوه لنا، فهو الشعر الذي كان صدى لأعمالهم، وتصويراً لهذه الأحداث ودفاعاً عن رسول الله ﷺ والمسلمين في موطن من مواطن المواجهة. فكيف نطلب من هؤلاء أن يعطونا شعراً يستوعب كل التفصيلات، وكيف نطلب منهم شيئاً لم يكن مطروحاً آنذاك، ولو تصورنا أي شاعر غيرهم لما جاء بأكثر مما جاؤوا به، ولما جاد بأفضل مما جادوا به، ولم يكن من مهمتهم هذا الأمر، لأن رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله يشرع ـ بأمر من ربه عز وجل ـ للناس ما يحتاجون إليه.

إن الشهادة والتأييد الذي كان يلقاه هؤلاء الشعراء من رسول الله ﷺ ومن صحابته كافيان للرد على هذه التهمة.

أما ما نريده منهم من أغراض توضحت لنا من خلال التطور البعيد لمسيرة الدعوة، فهو أمر غير موضوعي، ومن الظلم أن نطلب منهم ذلك، فكيف إذا كانت هذه الأمور متوهمة ومأخوذة من نماذج للثورات الجاهلية ؟

ولماذا نعلل هذا القصور المتوهَّم بالقافية والشكل؟

بل لماذا نقبل على شعرنا وتراثنا بخلفية معينة غرقت بالصور الحديثة للشعر، والمصطلحات المستوردة له، حتى أصبح كثير منا يتوهم أن ذلك هو الأمثل، وأنه لا يشعر بغير هذه الصورة؟

إن ذلك اتهام لا يقوم على دليل، وحكم يعوزه الإِنصاف، وقتل لأدبنا بسيوف صليبية مُستعارة.

وأما الأمر الآخر: وصفه الإِسلام بالثورة الجذرية، والانقلاب و.. فهو من الأمور الخطيرة، لأنه من نتائج الغزو الفكري الذي نشأنا عليه في مدارسنا وجامعاتنا وكتبنا.

لقد كتبوا لنا تاريخنا كما يريدون حتى ندرسه على أنه تاريخ الإِسلام. ودرسوا آدابنا، وأعطونا هذه الدراسات ليقولوا لنا هذا هو أدبكم، فأصبحنا نفكر بعقولهم، ونحمل أفكارهم، وندافع عنها ونتعصب لها. إن للإِسلام مصطلحاته التي تغني عن كل مصطلح آخر، وهذه المصطلحات تحمل سمة الإِيمان بالله عز وجل، والخضوع لناموسه. ومن مكائد المستشرقين والمبشرين أنهم أدخلوا كثيراً من مصطلحاتهم إلى هذه اللغة، وجعلوها قرينة التراث الذي نعتز به، ومن هذه المصطلحات لفظ الثورة، والانقلاب، والرفض، والتمرد و...

لقد جعلوا الثورة رمزاً لكل ما يطمح إليه الإِنسان المعذب في هذا العصر. إنها البلسم الشافي، والخلاص من كل مشكلة وألم.

ولكن الثورة طغيان، وفوضى، الثورة قوة جامحة مدمرة غير عاقلة، لأنها تقوم على أناس كثيرين يهدفون إلى تدمير الماضي لإِقامة المستقبل

هكذا بلا وعي تُدَمَّرُ الحياة، ويُذْبَحُ البشر، وتُداسُ القيم، وتستباح المحرمات باسم الثورة، بل يغدو كل شيء مباحاً، ومقبولاً باسم الثورة وفي سبيلها، وتاريخ الثورات واضح، ونتائجها وجرائمها ما تزال ماثلة للعيان.

قل لي: أية ثورة في العالم لم تدمر الحياة وتدوس الإنسان، وتحطم الحضارة، وتستبيح كل شيء حتى أبناءها؟

الثورة لا تعرف الوعي، ولا تعرف الهدف، لأنها تفتقد الضابط، ويعوزها الوعي.

ولدى رجوعنا إلى أصول هذه الكلمة ندرك أنها لا توحي بغير التغيير الأهوج الذي يقترب من الإفساد والتدمير.

ومن معانيها ما يلي: «ثَوَرَ: ثار الغبار، يثور ثوراً وثوراناً: أي سطع، وأثاره: غيره.

وثارت بفلان الحصبة، وثار به الناس: أي وثبوا عليه.

يقال: انتظر حتى تسكن هذه الثورة، هي الهَيْجُ.

وثوَّر فلان عليهم الشر: أي هيجه وأظهره، وثارت نفسه: أي جشأت، ورأيته ثائر الرأس: إذا رأيته وقد اشْعَانَّ شعر رأسه، وثار ثائره: أي هاج غضبه.

والثور: الذكر من البقر، والأنثى ثَوْرَة.

فمن هذه المعاني نرى أنها لا تعني غير الهيجان والتمرد، والغضب وكل هذه المعاني بعيدة عن التعقل والحكمة، بعيدة عن الانضباط والتجديد، بعيدة عن القصد والوضوح.

والواقع يؤيد ذلك، رغم ما يدَّعيه الثوريون، وما يلبسونه من معان وأفكار لهذا المصطلح، وكل الثورات التي رأيناها في العصر الحديث أو

القديم كانت تدل على هذا، وكلها ابتعدت عن ادعاءات أصحابها، وانتهت إلى أمور تخالف منطق الحياة، وتكذِّب المدَّعين بصلاحها، لذا فكيف نقبل أن نصف الإِسلام بالثورة، الإِسلام دين الله وكفى، وربنا جل وعلا وصف دينه بما لا يحتاج إلى أكثر من البيان والوضوح والدقة والشمول، فما بالنا نعرض عن الطيب الدقيق الواضح إلى الخبيث الفاسد المضطرب؟

ولا يخفي الكاتب إعجابه وانسجامه مع القاموس الجديد لدعاة الثورية في كل شيء، لهذا نرى عبارات وكلمات لهم تتردد بحماس في هذه الفقرة، بل تتزاحم، ويحس القـارئ بأن لها وقعاً وتأثيراً في نفس الكاتب، ومن أمثلة هذه العبارات والمصطلحات: «الانفلات، التخلف، الجمود، الثورة، الرفض، الانقلاب الجذري، التمرد، الثورة السياسية، الثورة الفكرية» وغيرها. وكلها مصطلحات أفرزتها الفلسفات الوضعية الخبيثة التي تتنافى - من حيث المبدأ والمضمون - مع الإِسلام، لأنها في حد ذاتها تعطي العقل الإِنساني دور الألوهية، ودور الوحي، فتضع التصورات وتطرح الأفكار الشريرة، وتقوم على أساسها المجتمعات الجاهلية.

وليس مقبولاً أن نطبع الأدب الإِسلامي في عصر رسول الله ﷺ بالقصور فضلاً عن رفض التعليلات التي قيلت عن سبب هذا القصور.

وأما الأمر الثالث الذي طرحه الكاتب في العبارة السابقة هو اعتبار الأشكال الشعرية الحديثة هي الصورة المقبولة، والمعبرة عن روح الإِسلام.

والخطأ في هذا الأمر ناتج عن تصوره للإِسلام بأنه ثورة، والثورة كما ألفها الناس هي تغييرات متجددة لتعبر عن مصالح أصحابها وتهويماتهم، لذلك كانت تجديداً مستمراً، بل فوضى دائمة، وصراعات مستمرة بين حملتها أولاً، وبينها وبين الناس ثانياً.

وكذلك يجيء الخطأ من التغاضي عن مفهوم الشعر الحديث ومنطلقاته التي تحمل فلسفة المذاهب المادية المعاصرة، وتعبر عن عقائد الجاهلية

الحديثة ولذلك قبل هذه الأشكال لأنها صورة جديدة، فتبنت كثيراً من الذين انساقوا مع العصر بكل ما فيه من متناقضات وشذوذ.

ويمضي المؤلف في تقويمه للشعر الإسلامي طبقاً لهذه النظرة الغريبة، فيرى التمرد والشذوذ، والخروج عن الخلق الإسلامي والشريعة الإسلامية ظاهرة صحية، وصورةً جيدة فيقول «إن المتتبع لحركة الشعر الإسلامي في العصر الأموي يقف على بعض النماذج التي شحنت قوافيها بالتمرد حيناً وبالرفض والثورة أحياناً أخرى»[1].

وعندما يريد الثناء على صورة من صور الشعر الإسلامي أو لون من ألوانه يضفي عليها مسوح الجاهليات الحديثة ومصطلحاتها «إن في شعر الفتوح الإسلامية مجموعة أغلبها تنحصر في مقطوعات قصيرة يمكن أن نعدها أشعاراً إسلامية يتوفر فيها كثير من مواصفات العمق والرفض الإسلاميين»[2].

فالكاتب يقبل هذا الشعر الذي يعبر عن أصدق المشاعر الإسلامية، وعن أروع الصور من المجتمع الإسلامي، صور الجهاد وسط المعارك ذاتها، وعند الفتوحات، يقبل هذا الشعور تجاوزاً فقال ـ يمكن أن نعدها ـ وبدا وكأنه يجود عليها بالرضى، ويتسامح معها.

وأما الميِّزات التي يعتبرها سمة للشعر الإسلامي فهي: العمق والرفض. ولا أدري ماذا يقصد بالعمق والرفض، إلا أن تكون لفظتين مما تعود أن يكررهما نقاد الأدب الحديث وأدباؤه، ويضيف إليهما كلمة الإسلام لتتحول من الجاهلية الماركسية أو الجاهلية الديمقراطية أو غيرهما إلى الإسلام.

(١) ص ١٣ من نحو آفاق شعر إسلامي معاصر.
(٢) ص ١٣ من المصدر السابق.

وبمثل هذا التعميم والسرعة يحكم على العصر العباسي، ويجود على بعض القصائد الجادة، بصفة ـ النزعة الإسلامية(٣) وتعليله لجودتها أنها تحمل مضامين ثورة سياسية عند أبي تمام وثورة فكرية عند المعري.

وليس خافياً أن هذا الذي يجعله صورة ثورية إسلامية هو الذي قال عنه الدارسون من المسلمين على أنه شذوذ عن الإسلام، وخروج عن الشريعة.

وعندما يخلص إلى العصر الحديث يعتبر بعض شعراء مدرسة أبولو ومدرسة النجف يمثلون روح الإسلام.

ولا أدري من هم الشعراء الذين يمثلون روح الإسلام، وما هو الشعر الذي جعله يحكم هذا الحكم؟

بل لا أدري لماذا نهرب من الوضوح إلى الغموض، ومن مصطلحات الإسلام إلى مصطلحات الجاهلية؟

وإن مثل هذه التعبيرات: الرفض ـ الثورية ـ روح الإسلام ـ يلجأ إليها كثير من الدارسين ليصلوا إلى غايات لا يمكن قبولها لو لم تغلف بأغلفة براقة خادعة.

فالإسلام هو الإسلام وكفى، أسلوباً ومضموناً، روحاً ومادة، ولكن العدول عن تسميته الصريحة إلى الروح ليكون هناك متسع لهؤلاء بتفسير كل شيء على أنه إسلامي، وأنه يمثل روح الإسلام، لأن روح الإسلام ليس لها مفهوم محدد، ويمكن لهم الادعاء على كثير من الأشكال الشاذة، على أنها من روح الإسلام، كما عملت المذاهب المادية والاجتماعية التي انبثقت من الوثنيات فراحت تزعم أن تصوراتها في الاشتراكية، والقومية، وغير ذلك من روح الإسلام.

وبعد هذا الاستعراض لا بد من تحديد الهدف الذي نسعى إليه،

---

(١) الصفحة ذاتها.

وألخصه بأن الأدب الإِسلامي هو الأدب الذي يعبر عن التصور الإِسلامي في الحياة، بكل أبعادها وألوانها.

وهو الأدب الذي يحمل رأي الإِسلام، ويوافق شرع الإِسلام ولا يخرج عن إطاره مهما تكن الأسباب.

ولذلك لا أتصور أدباً إسلامياً ينتجه ملاحدة، أو فسدة مارقون من الدين، أو ماديون خبثاء.

ولا أتصور أدباً إسلامياً ينتجه الضائعون الذين تلتبس عليهم الصورة، فيخلطون بين الوثنية والإِسلام، ويخلطون بين شرع الله وتخبطات البشر في الآراء والفلسفة، أو الذين يضيعون في دروب الفنون العالمية الوثنية بحثاً عن شكل جديد، أو ابتكار مستحدث.

الأدب الإِسلامي أدب ينبع من الإِسلام والمسلمين، له سماته وله صوره، وله أشكاله وأساليبه.

قد يلتقي مع هذا المذهب أو ذاك في نقطة أو نقاط ولكنه يبقى إسلامياً ويبقى ذاك غير إسلامي.

ولهذا، فإن الخطأ كل الخطأ أن نقبل ما تواضعت عليه الجاهليات الحديثة من منطلقات ومصطلحات، ومناهج وأساليب.

وأن نقبل ما وصلت إليه مذاهب النقد من صور وأشكال ومدارس ونقيس على أساسها ما نريد.

إنَّ الإِسلام ينشىء أدبه من منطلقاته هو، وبتصوراته هو، ولا بأس من أن يستفيد من كل مذهب وكل مدرسة ولكنه لا ينهزم أمامها أبداً، ولا ينطلق منها أبداً، ولا يجعلها هدفاً، أو قدوة، أو منبعاً لأدبه.

وحين نقوِّم أدبنا الإِسلامي، ونكتب تاريخنا الإِسلامي، نقوّمه على أسس إسلامية وليس على أسس جاهلية.

وعندما لا تهمنا تلك الأشكال، ولا تخدعنا الأسماء البراقة والغوايات التي نصبت كالأوثان وعبدها النقاد من الغرب والشرق، بل نخلص من أدبنا وتاريخنا وقيمنا إلى أشكال وصور إسلامية حقيقية، عندها نقول للناس هذا هو الأدب الإِسلامي.

وأي محاولة لإِنشاء أدب إسلامي معاصر على أسس خليطة، وبمقاييس الآداب الجاهلية فإنها ستفشل، وسوف يخرج لنا أدب مشوه مغشوش، لا يمثل الإِسلام، ولا يحمل روح الإِسلام، ولا يعبر عن منهجه الشامل.

وإن الذين يخوضون هذه التجربة، ويخضعون لمقاييس الآداب الأخرى، أو يسيرون على منوالها باسم الاستفادة من الأطر الفنية واهمون. ولن ينتجوا الأدب الإسلامي المنشود مهما كانت مواهبهم، ومهما بلغت قدراتهم.

إن الأدب الأصيل والمواهب الحقة هما كفيلان بخلق الأطر المناسبة، واختيار المقاييس الصحيحة، وابتكار الأشكال التي تعبر عن روح الأمة، وطبيعة المجتمع وأحاسيس الناس. لأن الأطر الفنية المعروفة لم تأت مصادفة، وإنما كانت نتيجة طبيعية لتطور الآداب الجاهلية ومسيرتها وأهدافها، فهي تحمل طبيعة هذه المجتمعات، وتعبر عن أهدافهم وفلسفاتهم.

الصورة الحقيقية للأدب الإسلامي

أكاد أجزم بأن الأدب الإِسلامي الحديث قد ولد فعلاً ونما وترعرع، ربما كان كثير من الناس لا يريد أن يعلم ذلك أو يصدقه، وربما كان كثير من الناس لا يريد أن يسمع ذلك أو يعلمه، لكن التيار العذب بدأ يشتدُّ ويقوى، وأضحىٰ يعمق مجراه ويخط في الأرض سبل اليقين. ولكأني وأنا أقرأ بين حين وآخر ألواناً من هذا الأدب أرى بداية الانحسار لتلك الأمواج الصاخبة المزبدة التي رمت شواطئنا بالدمار، وحملت لنا من الغرب والشرق عواصف الموت، ولم يبق في أرضنا إلاَّ الحصون، الحصون التي استعصت على زمجرة الريح وجنون العاصفة، ووحشية الأمواج، وبدأت هذه التيارات الخبيثة الوافدة تقتل بعضها، وتتآكل من داخلها، لأنها لا تحمل غير التناقضات فيما بينها، والخداع والتضليل في حقائقها، والقهر للفطرة الإِنسانية السوية.

وكذلك فإني أحس، عندما أرى واحداً من الكتب الأدبية الإِسلامية بأن مرحلة وسيطة قد بدأت تنتهي أيضاً. هذه المرحلة التي رأينا فيها قصصاً إسلامية، ومقالات أدبية إسلامية، ومسرحيات إسلامية وأشعاراً إسلامية، ولكنها كانت تعبر عن واقع يعيشه أصحابها، هذا الواقع يتأرجح بين قناعتهم الفكرية بالإِسلام، وسلوكهم المتناغم مع المجتمع الذي جرفته المادية، وأسرته اللذة، وركن إلى نداء الشيطان.

كنا نرى قصصاً تهدف إلى الإِصلاح، وتنشد الحياة في ظل الإِسلام،

لكنها تخفق في تصوير الشخصيات الحية التي تعيش الإسلام حقيقة وواقعاً، وسط هذا المجتمع العابث، وفي واقع الأمة التي تنتابها شتى الأفكار والفلسفات الوضعية[١].

كان الإسلام فكراً، وإعجاباً ونداء من بعيد لمعذب يرنو إلى الخلاص ولكنه لا يعرف الطريق، لأنه غارق في واقع آسن، وهو يخضع لمجتمع لاهٍ، فكيف يستطيع أن يصور المسلم في غربته الثانية وهو يقاوم تيار الفكر الغازي الجاهلي، ويقاوم مشاعر الإغراء والتخويف اللاهبة، ويقاوم سلوك المعصية المتفشية في كل شيء من حياة المجتمع.

كانت هناك قصص كثيرة، ومسرحيات وأشعار، وكنا نجد فيها ندى، وظلالاً في هجير الصحراء التي لا تنبت إلا الأشواك واللظى والعناء.

وكان هناك كُتّاب نرى فيهم بصيصاً من أمل في طريق الأدب، ومساره الصاخب الذي أراد منه شياطينه أن يقهر القلاع المتبقية في قلب المسلم وفكره وتراثه.

كان هناك أسماء ما نزال نذكرها: باكثير، والسحار، ونجيب الكيلاني وغيرهم وغيرهم وسط أمواج صاخبة.

ولكن الذي كنا نراه من أدبهم ما هو إلا مرحلة وسيطة رافقت بداية الصحوة، وبداية البناء.

لم يكن هناك تميُّز واضح في الاعتقاد والفكر والسلوك، لذلك رأينا الآثار الأدبية، تأخذ من المثل والأمل/ الإسلام/ وتأخذ من الواقع والوباء، لأنه فينا ونحن فيه.

وكان أكثر ما رأيناه من إنتاج هؤلاء يكاد لا يخرج عن هذا الخط

---

(١) انظر إلى كتاب (دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة) للمؤلف.

فالرجل والمرأة ينشدان الإِصلاح، ينشدان الخلاص من الأزمات، ومشكلات العصر، ويسلكان سُبُلاً كثيرة ولكنها تبقى جزئية. الرجل المسلم، والمرأة المسلمة لا يفترقان في تصويرهما ـ من خلال الآثار الأدبية لهؤلاء الكتاب ـ عن أي رجل أو أية امرأة في المجتمعات التي يعيشون فيها، ما خلا الفكر الذي يرى في الإِسلام أفضل طريق، وأفضل شريعة.

لكن المثل الحي وسط هذا المجتمع، الواقع الملموس للرجل والمرأة الذي يتميز بالإِسلام: بسلوكه وفكره وعقيدته، كان مفقوداً، لأن الكتّاب الذين كتبوا هذه القصص كانوا يفتقدون هذه الصورة في واقعهم، ولا يعرفون ولا يعيشون قساوة التجربة التي يتمخض منها المثل والقدوة، أو كانوا يخشون سطوة النقاد المهيمنين على الساحة الأدبية، الذين يرفضون مجرد الاعتراف بالأدب الإسلامي، ويطرحون الأفكار والقيم العلمانية.

إن ولادة الشخصية المسلمة المتميزة في الأدب، شخصية الرجل، وشخصية المرأة، وكذلك صورة الأسرة المسلمة، كان تابعاً لولادتها في الحياة من ناحية، وتحررها من الضغوط المختلفة حولها.

وولادتها في الحياة كان مرهوناً بالمجاهدة الحقيقية، في خوض التجربة الدامية، وتذوق طعم الشهادة التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

وعندما ولدت هذه الشخصية وسط المجاهدة، وعلى ترتيل آيات الجهاد والشهادة، رأيناها تنعكس على الأدب الإِسلامي الحديث بصورها المتميزة الآسرة، بمثالها الواضح الآسر، بأبعادها المتكاملة وجوانبها المتعددة.

وكانت هناك آثار كثيرة من الأدب الإِسلامي تمثل هذه المرحلة، أو تمثل الأدب الإِسلامي الحقيقي.

وليس مهماً أن يقول قائل عنها أنها لا تطابق الشروط الفنية، ولا تتوافر

فيها العناصر المطلوبة، وهي أقل من هذا وذاك، فالأدب الإسلامي الحقيقي يخط طريقه بصورته المتميزة، وهو الذي يصنع الأداة، ويختار الأسلوب، ويصطنع الوسيلة، ويضع الموازين، ويقيم النماذج التي تلائمه وتصور واقعه.

إنه ـ وقد تبرأ من كل ألوان الجاهلية الحديثة بالاعتقاد والفكر والسلوك ـ يأبى أن يخضع للأطر التي اصطنعها الأدب الجاهلي أيضاً.

الأدب الإسلامي لن يكون إلا صورة من صور الإسلام وهو يخلص الإنسان من جاهليته، وكما فعل في المجتمعات الجاهلية حين استصفى منها كل فضائلها، وصاغها مع نظامه المتكامل، لأنها تتوافق مع فطرة الإنسان وناموس الكون، كذلك ينبغي أن يفعل الأدب الإسلامي المعاصر مع الأدب السائد اليوم في العالم الإسلامي، والآداب الأخرى في العالم.

إنه يستصفي من الآداب الأخرى، ومن الواقع الذي يعالجه، ما فيها من فضائل، ويصوغها في نغماته العذبة لكي يكون متلائماً مع الفطرة الإنسانية وناموس الحياة.

وإنه لا يرفض أي صورة إيجابية ـ في الشكل والمضمون ـ من الآداب الأخرى.

ولعلنا حين نقرأ بعض المجموعات الشعرية الإسلامية الحديثة، لشعراء لم تلتمع أسماؤهم على صفحات المجلات والصحف والكتب، نرى مثالاً لهذا، وكذلك حين نقرأ بعض المجموعات القصصية التي صدرت في السنوات الأخيرة نجد مصداق ذلك.

ويكفي أن أذكر في هذا المجال عدداً من هذه القصص ومنها:

قصة «القابضون على الجمر» لكاتبها أنور رياض وهو يصور التجربة التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مصر بعد عام ١٩٥٤.

وقصة «ميلاد جديد» لكاتبتها حنان لحام وهي تصور الأسرة الإِسلامية وسط المجتمع الخارج عن شرع الله عز وجل.

وقصة «أختاه أيتها الأمل» لكاتبها أحمد بدوي وهي تصور تجربة الفتاة وسط الجاهلية الحديثة، وتوضح الطريق الذي يخلصها من الضياع والمهانة، والمسؤولية الملقاة على عاتقها.

والمجموعات القصصية للأديب الكاتب إبراهيم عاصي[١].

وهناك كتب أخرى، ومحاولات جديدة تتكاثر وتزيد، وتبشر بمرحلة جديدة.

مرحلة لا نرى فيها أية صورة مشوهة، تقبل الترقيع والضعف، وتستكين للواقع مهما كان.

إنها الولادة الحقيقية للأدب الإِسلامي، والصورة الحقيقية لهذا الأدب المنشود.

---

(١) انظر إلى كتاب (في القصة الإسلامية المعاصرة) دراسة وتطبيق للمؤلف، فقد استعرض الكتاب عدداً من القصص، والمجموعات القصصية الحديثة.